بيت الحياة
أبو حفص أ.ب.ش
https://baytalhayat.com
الجزء الأوّل

تنبيه للقارئ

هذا الكتاب متاح **مجانًا** شكرا للخالق ونصحا للخلق.

أرجو تداوله بصورته الأصلية مع ذكر المصدر عند الاقتباس.

أسأل الله أن يتقبّله مني وأن ينفع به قارئه

١٤٤٧هـ - ٢٠٢٥م

https://baytalhayat.com

تنبيه منهجي

قد تَرِد في هذا الكتاب اقتباسات تم تكييف بعض ألفاظها أو ترتيبها أو حذفها لتناسب السياق الأدبي والحواري للقصة، دون الإخلال بالمعنى المقصود، مع الالتزام بذكر مصادرها والإشارة إليها بـ"تصرف".

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين نبيّنا محمد وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين

الفهرس

1	المقدمة		8
2	هل هناك إله؟		44
3	كيف نعرف الدين الصحيح؟		49
4	لمن تفتح الحقيقة بابها؟		55
5	عقل الأنبياء		62
6	شبهات السوفسطائيين		94
7	النسوية		129
	1	من نفي الغريزة إلى المرأة المستقلة	131
	2	العيوب	141
	3	أزمات داخل الفكر النسوي	168
	4	تأثير الفكر النسوي على المجتمع	179

	5	لماذا أنكروا الفطرة والغرائز؟	182
8	لماذا أرسل الله الرسل؟		185
9	ما هو الدين الصحيح؟		187
	1	الأعمال التي تأتي بها الشريعة	189
	2	الأحكام المنسوخة	189
10	كيف يُحَقّق دين الله العدل؟		195
	1	نظام الفطرة والنّفس	199
	1	بر الوالدين	204
	2	العنصرية	223
	3	النصيحة	226
	4	قواعد في نصح الناس	228
	5	حقوق الأخوة	247
	6	الفرق بين الذل والعفو	250

		7	التخلّق بالفضائل سبب من أسباب السعادة	254
		8	لذّة الخبيث تعقبها ألما وشقاء	255
		9	من ترك شيئا لله -عز وجل- عوّضه الله خيرا منه	266
		10	خُلق الحياء	271
		11	الفضائل تدعو صاحباتها من الفضائل، كذلك الخبائث	273
		12	تأنيب الضمير	274
		13	شُعور يُميّز بين الفضيلة والرذيلة	275
		14	الزنا	276
		15	الفضائل والخبائث لها تأثير على الوجه والملبس	282
		16	الحب	284
		17	الزواج	287

		18	تعلم المرأة للعلم	301
		19	الانفصال أو الطلاق	310
		20	الغيرة	321
		21	خلاصة الغرائز والدوافع الطبيعية في حفظ الإنسان وبقاء نسله	327

"أهلا، ما هذه المفاجأة؟ باكرين اليوم! هل المدير قرر أخيرا أن يكسر الروتين؟" قال آرثر متهكما ومازحا بطريقته المعتادة

ردّ ليو مبتسما:

"لقد أنهينا المشروع بالأمس، فأراد أن يريحنا اليوم...ويشكرنا على تفانينا، تخيل!"

في تلك اللحظة، اقترب الخادم ووضع فنجان القهوة أمام آرثر برفق، قائلا:

"قهوة كابتشينو، كما تحبها، سيد آرثر"

أومأ آرثر له بالشكر وهو يأخذ أول رشفة ببطء

تابع أوليفر الحديث بنبرة أكثر جدية:

في الحقيقة، المدير قدّر جهدنا فعلا، المشروع كان مهما له وللشركة، وكان حريصا أن يُنصفنا

ثم أضاف وهو يلتفت إلى آرثر بنظرة فيها شيء من الحنين:

بالمناسبة، ألا ترى أننا لم نخرج في رحلة استكشافية منذ وقت طويل؟
العمل شغلنا تمامًا هذه الفترة

رفع آرثر حاجبه وهو يضع فنجانه على الطاولة:
أخيرًا تذكّرتما الهواء الطلق؟ كنت سأقترح الأمر بنفسي!

ابتسم ليو وقال بحماس:
إلى أين إذًا؟ ما وجهتنا هذه المرة؟

أجاب آرثر وهو يخرج هاتفه ويتصفح شيئًا بسرعة:
رأيت جزيرة قبل أيام على الإنترنت... معزولة نوعًا ما، فيها غابة كبيرة وكهوف، تبدو مثالية لمغامرة حقيقية

تبادل الثلاثة نظرات حماسية، ثم قال ليو:
نذهب في الإجازة بعد شهر إذًا؟ نحتاج فعلاً إلى شيء كهذا

هزّ أوليفر رأسه قليلاً ثم قال مبتسمًا:

"أنا موافق... لكن عليّ أن أراجع الأمر مع زوجتي أولاً، فقط للتأكيد، تعرفون القواعد!

ضحك آرثر وقال ممازحًا:

نعم، نعرف أنّك لا تفعل شيئا دون مُشاورة الوزارة الداخليّة

ليو:

لا تَقْصَ عليه يا آرثر!

آرثر:

أمزح معه!... كيف هي أميليا بعد خروجها من المستشفى؟

أوليفر:

أحسن بكثير... رجعت منذ أسبوع للعمل

آرثر:

أبْلِغْها وأبْلِـغ الأولاد سلامي!

أوليفر:

هم أيضا يسألون عنك... البارحة ونحن على طاولة العشاء، أخبرني توم بأنّه اشتاق إلى اللعب معك

آرثر:

أخبره الليلة أن يجهّز نفسه للخسارة! سأزوركم غدا

ليو مازحا:

كم عقلك صغير يا آرثر! أَتُنافِس طفلا صغيرا؟!

ضحك الثلاثة، للحظة، عمّ بينهم صمت قصير، ثم قال آرثر وهو يحدق في فنجانه:

تذكرت رحلتنا إلى الغابة الجنوبية... تذكران حين وقعتُ في الوحل المتحرك؟

قهقه ليو وهو يصفق على الطاولة:
وقتها كنت متورّطًا فعلاً! كان وجهك شاحباً من الذّعر

أضاف أوليفر وهو يهزّ رأسه:
قلتَ يومها: لا تقلقا، أنا أعرف كيف أخرج... وبعد دقيقة صرخت:
أنقذاني أو ستبتلعني الأرض!

ضحك آرثر وهو يهزّ كتفيه مستسلماً:
بصراحة، ظننت أنّني لن أخرج، كنت أرى الوحل يبتلعني ببطء وقلت:
هذه نهايتي... كم هي غبيّة جدًا!

ضحك الثلاثة، وقبل أن تهدأ الضحكة، قال أوليفر:
أما أنا... لن أنسى البحر، تلك الرحلة عندما رأينا زعنفة قرش تقترب منا

شهق ليو:

آه، نعم! وجوهنا تحوّلت في لحظة إلى شبح

أوليفر:

في تلك اللحظة، رأيت شريط حياتي يمر أمام عيناي، وقلت في نفسي: أهكذا أموت؟ مأكولاً من قرش؟!

انفجروا بالضحك مجددًا، لدرجة أن بعض الزبائن التفتوا إليهم، لكنهم لم يكترثوا، كانت الذكريات أغلى من كل شيء في تلك اللحظة.

بعد تلك المحادثة الجميلة، ودّع آرثر صديقيه ولوّح لهما وهو يخطو خارج المقهى. كانت شمس المغيب ترسم خيوطًا ذهبية على الأرصفة، والنسيم الخفيف يحرك أوراق الأشجار بلطف. سار آرثر بخطى هادئة نحو شقته، مستمتعًا بالسّكينة التي خلّفها اللقاء.

مرّ على السوق الصغير القريب من الحي، حيث اعتاد أن يشتري حاجياته. توقف أمام بائع الفواكه، اختار بعض التفاح الطازج، وبعضا من البرتقال، ثم اتجه إلى محل الخبز واشترى رغيفين دافئين.

حمل الكيسين معه، وصعد الدرج الخشبي القديم إلى الطابق الثاني، حيث يسكن جاراه العجوزان، السيد والسيدة هارولد. طرق الباب برفق، وما إن فتح الرجل العجوز الباب حتى ابتسم، رغم علامات الإرهاق على وجهه.

قال آرثر وهو يمدّ إليه الأكياس:
"جئتكم ببعض الحاجيات، أعرف أنكما لا تحبان الخروج كثيرًا في هذا الجو

تأمل هارولد الكيسين بدهشة ثم قال:
آه، يا بني... أتْعبتَ نفسك من أجلنا مجددًا، لا ينبغي أن نثقل عليك هكذا

لكن آرثر لوّح بيده وكأنه يزيح الكلام في الهواء، وقال بلطف:
لا تقل هذا يا عم هارولد، أنتما مثل جدي وجدتي... صدّقني، هذا لا يتعبني، بل يسعدني

ارتسمت ابتسامة امتنان على وجه العجوز، وقال:
بارك الله فيك يا آرثر... وجودك معنا نعمة

آرثر:
فقط لا تتردد إن احتجت لأيِّ شيء، حتى إن أردت أن أبحث لك عن لبن العصفور، فقط أخبرني!

ضحك العجوز، ثم دعاه للدخول لتناول كوب شاي، لكن آرثر اعتذر بلطف، قائلاً إنه متعب قليلًا

وما إن دخل شقّته وأغلق الباب، حتى تنهد بهدوء، نزع سترته، وألقى بنفسه على الأريكة، والابتسامة لا تزال مرسومة على وجهه.

كانت تلك اللحظات الصغيرة، المليئة بالود والاهتمام، هي ما يعطي لحياته طعمًا خاصًا.

بعد شهر...

كان الثلاثة يقفون في مطار الجزيرة، كان الهواء يحمل رائحة البحر والغابة معًا، مزيجًا آسرا متناغما داعٍ إلى مغامرة لا تُنسى.

تثاءب ليو وهو يحمل حقيبته على كتفه، ثم قال متلفتًا نحو السيارة المستأجرة التي تنتظرهم:

حسنًا، من سيقود؟

أدار آرثر رأسه ببطء نحو ليو، ورفع حاجبه بطريقة ساخرة، وقال بثقة لا تخلو من تهكم:

أنا، طبعًا... من غيري؟

ردّ أوليفر وهو يضع يده على جبينه:
نظرتك لا تُطمئِن يا آرثر. آخر مرة قدتَ فيها سيارة في جزيرة، انتهى بنا المطاف في حفرة

ضحك آرثر وهو يفتح باب السائق:
الطريق إلى الفندق طويل، ولن أضيّع يوما من عطلتنا في القيادة البطيئة

طأطأ أوليفر رأسه مستسلما ودخل السيارة... قاد آرثر بسرعة لا يمكن وصفها إلا بـ"مجنونة"، مما جعل أوليفر يتمسك بمقبض الباب الداخلي وكأن حياته تعتمد عليه.

وأخيرًا، بعد ساعتين من الانعطافات المفاجئة والتعليقات الساخرة، وصلوا إلى الفندق... كان المبنى يوحي بالهدوء والراحة مع إحساس

خفيف بالمغامرة، يطل مباشرة على حافة الغابة، تحيط به الأشجار من كل جانب، وكأن الطبيعة قد عانقته منذ زمن بعيد.

نزل أوليفر من السيّارة وهو يتأفف:

أقسم أنني رأيت حياتي تمر أمام عيناي مرتين على الأقل!

ضحك آرثر وهو ينزل بهدوء وكأنه خرج للتو من نزهة مريحة:

أنت فقط لا تملك روح المغامرة يا عزيزي... القيادة السريعة جزء من التجربة

قال ليو وهو يتثاءب مرة أخرى:

التجربة الحقيقية تبدأ غدًا... دعونا نرتاح الليلة، لأنني لا أريد أن أواجه وحوش الغابة وأنا شبه نائم

دخلوا غرفهم في الفندق، وكل واحد منهم استسلم سريعًا للتعب، غارقين في نوم عميق تحت سماء صافية تملؤها أصوات ليل الجزيرة.

في الصباح الباكر، استيقظ الثلاثة على صوت طيور غريبة تغرّد من أعماق الغابة. كان الهواء نديًا، تفوح منه رائحة الأرض المبللة بالأمطار القديمة، ورائحة الأشجار العالية التي بدت وكأنها تمسك السماء بأطرافها. غابة عظيمة، كثيفة، تتشابك أغصانها في الأعلى حتى تحجب الشمس، تاركة بقعًا من الضوء تتراقص على الأرض مثل فسيفساء طبيعية.

حملوا حقائبهم الخفيفة على ظهرهم، وانطلقوا بخطى حماسية عبر الدرب الترابي المؤدي إلى قلب الغابة. كانت الأرض غير ممهدة، مغطاة بأوراق الأشجار المتساقطة، وبين حين وآخر، يسمعون طقطقة غصن يُكسر تحت أقدامهم، أو حركة خفية في الأدغال المجاورة.

قال ليو وهو يدفع فرع شجرة عن وجهه:
لو كان هذا فيلمًا، لظهر الآن نمر أو ثعبان ضخم أمامنا

رد آرثر وهو يلتقط صورة لجذع شجرة ضخم تغطيه الفطريات:

بل سيظهر كهف غامض... بداخله كنز قديم وحارس خطير

ضحك أوليفر، لكن سرعان ما قطعت الضحكة زقزقة طائر حادّة فوقهم، تبعها صمت غريب جعلهم يتوقفون لحظة.

"هل سمعتم ذلك؟" سأل أوليفر وهو ينظر حوله.

قال ليو:

مجرد طائر...

لكن آرثر كان يحدق في شيء قرب جذع شجرة، فركع ليتفحصه:

انظروا إلى هذه الآثار... يبدو أنها آثار حيوان ضخم... ليست لذئب... ربما دب؟

تبادلوا نظرات قصيرة، ثم قرروا المتابعة رغم القلق الطفيف الذي تسلل إلى وجوههم... بعد ساعة من المشي، وجدوا جدولاً صغيرًا يتدفق بين الصخور، فجلسوا ليستريحوا قليلاً.

أخرج ليو بعض الفواكه من حقيبته، بينما ملأ أوليفر قنينة ماء من الجدول. أما آرثر، فكان منهمكًا في رسم خريطة بسيطة على دفتريته، قال وهو يرسم علامة قرب الجدول:

هذا المكان يصلح كنقطة مرجعية. لو ضللنا الطريق، نعود إليه

ثم أردف بنبرة جادة، تختلف عن مزاحه المعتاد:

الغابة عظيمة... لكنها لا ترحم من لا يحترمها

هزّ الاثنان رأسيهما، وشربوا القليل من الماء، ثم تابعوا السير أعمق فأعمق...

كانت الشمس قد بدأت تميل نحو الغرب، تُلقي بأشعتها الذهبية على رؤوس الأشجار، حين قال آرثر وهو يتفحص الأفق:

"من الأفضل أن نخيّم هنا هذه الليلة"

وافقه الاثنان دون تردد... اختاروا مساحة شبه مستوية بين الأشجار، وشرعوا في إعداد المخيم... نصبوا الخيام الثلاث بجانب بعضها، وجمعوا الحطب وبعض الأحجار لتكوين حلقة نار آمنة. ارتفعت ألسنة اللهب رويدًا رويدًا، وألقت دفءً خافتًا على وجوههم، بينما كانت أصوات الحشرات اللّيلية وأوراق الأشجار التي تتمايل في النسيم تُحيط بهم، والسماء فوقهم مزيّنة بنجوم لا تُعد، بعيدة عن ضوء المدن وصخبها.
جلسوا حول النار يتحدّثون ويضحكون ويتقاسمون الطعام الذي أحضروه معهم: بعض المعلّبات، وقطع خبز، وقطع شوكولاتة للختام... حتى أثقلهم التعب.

تثاءب ليو وهو يقول:

أعتقد أنني سأستسلم للنوم... غدًا يوم آخر

دخل كلٌ منهم خيمته... وفي جوف الليل، استيقظ أوليفر وهو يشعر بحاجة ملحة لقضاء حاجته. خرج بهدوء من خيمته، متفاديًا أن يوقظ صديقيه، واتجه إلى طرف المخيم. الهواء كان رطبًا، والصمت كثيفًا لدرجة أنه كان يسمع دقات قلبه.

وبعد أن فرغ من حاجته، عاد أدراجه نحو الخيام، لكن فجأة شعر بشيء يتحرك تحت قدمه، تبعه وخز حاد في ساقه.

"آآآه!"

صرخ أوليفر من الألم، لم يستوعب ما حدث إلا حين رأى ثعبانًا صغيرًا ينزلق مبتعدًا في العشب المبلل.

قفز آرثر وليو من خيمتيهما بفزع، هرعوا نحوه ووجدوه يجلس على الأرض، يتأوه، قابضًا على ساقه.

قال لاهثًا:

"لقد... لدغني ثعبان... مشيت عليه دون أن أراه..."

على الفور، مزّق ليو طرف قميصه بسرعة وربطه بإحكام فوق مكان اللدغة، ليمنع السم من الانتشار في باقي الجسم.

قال آرثر وهو يركع قربه:

اضغط جيدًا! لا نريد للسم أن يصعد أكثر

همّ ليو أن يمتص السم بفمه، لكن آرثر أمسك بيده فجأة وقال بحزم:

توقف! هذا خطر! قد تنقله إلى نفسك... لدينا عدة الإسعافات، استعمل المضخة!

تذكّر ليو المضخة اليدوية الصغيرة المضادة للسم في حقيبتهم، فأخرجها بسرعة وبدأ يستخدمها على موضع اللدغة، بينما أوليفر يئنّ من الألم، وقطرات العرق تتساقط من جبينه.

في تلك اللحظة، شقّ السكون صوت دابة تركض نحوهم من بين الأشجار، خطوات سريعة، تقترب أكثر فأكثر.

رفع ليو رأسه وقال بانفعال:

لا يمكننا التحرك الآن! عليّ أن أُخرج ما أمكن من السم قبل أن يتفشى في جسده!

ردّ آرثر بصرامة وهو ينهض:

حسنًا، أنت اهتم به... سأتعامل مع القادم

نظر حوله بسرعة فرأى الحجارة المكدّسة لحلقة النار، التقط واحدة، ثم تسلّق الشجرة القريبة الواقعة في اتجاه الصوت بخفة، مستقرًا بين أغصانها وعيناه تتبّعان مصدر الدابة.

في الأسفل، كان أوليفر يرتجف من الألم، ثم همس بصوت مكسور:

"اسمعا... لا جدوى من البقاء... اتركوني وارحلوا. أنقذوا أنفسكم... لا أريد أن أكون عبئًا عليكم!

التفت آرثر إليه من فوق الشجرة، عيناه تلمعان بالغضب، وقال بصوت عميق:

أخرس، أوليفر!

صمت الجميع لحظة، حتى ليو رفع رأسه بدهشة، ثم تابع آرثر بصوت صارم، يتردد صداه بين الأشجار:

جئنا إلى هنا معًا... وسنعود معًا. هذه ليست مغامرة لشخص واحد. إما نخرج كلنا من هذه الغابة... أو نبقى فيها معًا

رمش أوليفر بعينيه كأنه يقاوم دمعة، ثم همس:

أنتم... أنتما أعظم مما أستحق...

قال ليو دون أن يرفع عينيه عن ساقه:

اصمت وابقَ حيًا أولاً... ثم تحدث عن الاستحقاق لاحقًا

ضحك آرثر بخفة رغم الموقف، وهمس من فوق الشجرة:

تمسّكا... لأن هذا الليل لم ينتهِ بعد

كانت أنفاس آرثر بطيئة، يترقّب من بين الأغصان كثعلب صيّاد. وفجأة، خرجت من بين الشّجيرات الدّابة، وما إن أظهر رأسه حتّى ألقى عليه آرثر الحجر بكل ما أوتي من قوّة، فارتطم برأسها، وسقط على الأرض دون حراك، وقبل أن يُغشى عليها صرخت صراخا مُفجعا، انتشر صداه كنداء استغاثة، ارتدّت به الغابة كلّها.

صرخ آرثر منتصرًا وهو يقفز من الشجرة:

أخبرتكما! سنعود معًا! سنخرج من هذه الغابة

ليو:

ما هذا؟... دبّ صغير؟!

آرثر:

لقد خفنا عبثاً

لكن صوته انقطع فجأة...

دوّى في الأفق صوتُ هرولة عارمة، كأن عشرات الأقدام تهبط من أعالي الجبل.

اهتزت الأرض تحتهم، وتمايلت الأشجار، وارتجف الهواء.

جمد الثلاثة في أماكنهم...خفقت قلوبهم كأنها ستخرج من أجسادهم

رفع ليو رأسه وقد شحب وجهه:

أظنها أمّه؟!

وقف آرثر مذهولا، وقد اتسعت عيناه، والعرق يتصبب من جبينه:

أجل... يا إلهي! إنها قادمة...

ثمّ صاح:

ليو! احمله على ظهرك الآن! اركض! لا تنظر وراءك!

لم يعترض ليو، حمل أوليفر الذي بالكاد كان واعيًا، وأسنده على ظهره كما يحمل جنديٌّ رفيقه المصاب. كان جسده يئنّ من ثقل الحمل، لكن الخوف منحه قوة لم يعرفها من قبل.

ركض آرثر أولًا، يتفحّص الطريق بجنون، يبعد الأغصان والحجارة، وليو خلفه، يلهث، وقلبه يكاد يخرج من صدره، بينما أوليفر يعلّق ذراعيه برقبة ليو بحذر، محاولًا ألّا يثقل عليه.

خلفهم، كانت أصوات الدّبة تمزق الغابة... هرولة، صوت فروع تتحطم، أشجار ترتجف...

تعثّر ليو فسقط وأسقط معه أوليفر،

قال أوليفر بصوت مكسور:

اتركاني وانجوا بأنفسكما!

لكن الصوت خلفهم كان أقرب الآن...
أثقل...
أوضح...

لم تعد هرولة فقط، بل زمجرة عميقة شقّت الهواء، جعلت الدم يتجمّد في عروقهم. اهتزّت الأرض من جديد، وهذه المرة بعنف أكبر، وتساقطت أوراق وأغصان فوق رؤوسهم

وثب آرثر يحمل أوليفر ثمّ صرخ:

لا تتوقف يا ليو!

اندفعا من جديد...

فجأة، لمح ليو جدارا صخريا يرتفع وسط الغابة، كجبلٍ صغير اقتُطع من الأرض وتُرك واقفًا وحده.

"لنصعد ذلك الجبل! لن تستطيع الدبّة تسلقه!" قال ليو

اندفعا نحوه... تسلّق ليو الجبل أوّلا ثم التفت يمدّ يده إلى آرثر ليعينه على التسلق بأوليفر...

وفي تلك اللحظة، انشقّت الشجيرات خلفهم، وبرز ظلٌّ ضخم بين الأشجار، عينان لامعتان في العتمة، وصوت أنفاس ساخنة.

"أَسْرِع يا آرثر! أَسْرِع!"

وما إن رأتهم الدبة حتّى اندفعت نحو الجبل، فكان اصطدامها بالجدار متزامنا بوصول آرثر للقمة

مدّت مخالبها، خدشت الصخر، لكنّها لم تُفلح

كانت الدبة تدور، تزمجر، تضرب الصخر بمخالبها الغليظة

فجأة شقّ الهواء زئير الدبّ الصغير من جهة المخيم

توقّفت الدبة لحظة، ثم تراجعت، واختفت بين الأشجار.

ثوانٍ مرعبة مرت، وكأنها دهر...

همس ليو وهو يلهث:

لقد... نجونا... بحق السماء، نحن أحياء!

تبادل الثلاثة نظرات صامتة، وفي صدورهم إحساس واحد لم يحتاج إلى كلام: أنهم ما زالوا هنا.

وبدأت الأمطار تنزل...

فجأة، ترنّح أوليفر، ومال جسده كأن القوة انسحبت منه دفعة واحدة. أسرع آرثر وأمسكه، وما إن لمس جلده حتى شهق:

حرارته... يا إلهي، إنه يحترق!

كان جسد أوليفر ساخنًا على نحو غير طبيعي، العرق يغمر جبينه، وأنفاسه ثقيلة، وعيناه نصف مغمضتين، تسبحان في دوار مرهق.

همس بصوت متكسر بالكاد يُسمع:

أظن... أنني لن أخرج من هذه الغابة...

هزّ ليو رأسه بعنف، اقترب وأمسك بيده بقوة، كأنه يتشبث به من السقوط:

لا! لا تقل هذا! تمسّك فقط!... نحن هنا

فتح أوليفر عينيه بصعوبة، نظر إلى السماء الرمادية بين الأشجار، وقال بصوت خافت:

سامحاني... لقد كنتما أخويّ حقًا

انحنى آرثر عليه، وصوته يرتجف:

كفى... لا تودّع! لا الآن!

تحركت شفاه أوليفر ببطء:

أخبرا أميليا... أنني أحبها... واعتنيا بالأطفال...

ضغط ليو على يده، وصوته مبحوح:

أنت من سيفعل ذلك! اسمعني... أنت لن تتركنا!

لكن وجه أوليفر شحب أكثر، ونبضه أصبح واهنًا تحت أصابع آرثر.

لحظات مرّت... ثقيلة، خانقة، كأن الغابة نفسها حبست أنفاسها.

فجأة، صرخ آرثر، صرخة خرجت من أعماقه:

لن أدعك تموت هنا! لن يحدث هذا!... يا إلهي أنقذنا!

رفع جسد أوليفر بين ذراعيه، وقال بلهجة لا تقبل النقاش:

ليو! إلى الفندق، الآن! أيّ طبيب... أيّ شخص، هيا!

وانطلقوا... يركضون، والدموع تنساب من أعينهم، مختلطة بعرق الخوف والمطر البارد الذي يلسع وجوههم.

كانت خطواتهم تنبض برجاء، وعيناهما تتجهان أمامهما... ليس فقط إلى الطريق، بل إلى بصيص أمل، إلى حياة لم تنته بعد.

الطين والغصون تتخبط تحت أقدامهم، حين صرخ ليو فجأة:

آرثر! انظر هناك! بيت... أنواره مضاءة!

رفع آرثر عينيه المثقلتين بالتعب، ورأى الضوء يتسلل بين الأشجار من نوافذ بيت، كأنّه جزء من الغابة، وسط العتمة.

تضاربت ملامحه بين الدهشة والارتباك:

بيت؟ أليس ذلك الجدول الذي جلسنا عنده؟ لم يكن هناك بيت...

هز رأسه بقوة ليطرد الشكوك، ثم زمجر من أعماق صدره:

لا وقت للتفكير... لنذهب!

ركضوا بكل ما تبقى فيهم من قوة، قلوبهم تخبط في صدورهم كأنها تستغيث.

وصلوا إلى الباب، طرقوه بعنف، وصرخ آرثر:

أرجوك! أنقذ صديقنا! إنه يحتضر!

كان صوته يرتجف، وطرقاته تلهب الخشب، ثم سمعوا وقع خطوات من الداخل... خطوات هادئة، متزنة.

توقف الزمن لحظة، تبادل آرثر وليو النظرات... فرح أم خوف؟

ارتجف الهواء حولهم حين فُتح الباب ببطء، ووقف رجل طويل القامة، حسن الملامح، عيناه تحملان دفء غريب وابتسامته تنثر الطمأنينة.
ما إن رأوه، حتى هدأت أرواحهم قليلاً.

قال الرجل بنبرة وادعة:

تفضلوا بالدخول...

قادهم إلى غرفة جانبية، وأشار إلى سرير خشبي نظيف مفروش بغطاء صوفي.

"ضعاه هنا"

بسرعة وضعا أوليفر كما أمر، يتنفس بصعوبة، وجهه شاحب.

فتح الرجل خزانة صغيرة، أخرج حقنة وملأها بسائل شفاف، ثم حقن رجل أوليفر بإتقان.

ابتسم إليهما قائلاً:

سيكون بخير، السم لم يصل إلى أعماق جسده، وما فعلتماه أنقذه... إنه محظوظ بصداقتكما

نظر إليه آرثر، ودموعه لم تجف بعد، وهمس:

هل أنت... طبيب؟

أجابه الرجل بابتسامة هادئة:

تعلمت ما يُبقيني على هذه الأرض

ناولهم مناشف، وحضّر لهم الشاي، ثم قال:

أنتم أكثر من أصدقاء... أنتم إخوة، هذا نادر، لا تدعوه يضيع أبدًا!

أطرق ليو رأسه، تأمل كوب الشاي، ثم نظر إلى أوليفر، وأنفاسه بدأت تستقر.

قال آرثر بصوت متهدج:

لم نكن لنغفر لأنفسنا لو فقدناه...

ابتسم الرجل اعجابا من كلام آرثر.

ساد هدوء ممتد لثوانٍ، تنفّسوا جميعًا الصعداء لأول مرة منذ ساعات طويلة.

في تلك الليلة، وبعد أن هدأت الأنفاس واطمأنت القلوب على أوليفر، قال الرجل بنبرة دافئة:

بيتوا هنا الليلة... أنتم مرهقون، وصديقكم بحاجة للراحة. الغرف جاهزة والبيت واسع.

لم يكن أمامهم خيار آخر، فالإرهاق بلغ مداه. شكروا الرجل، ثم استلقوا على الأسرة النظيفة والدافئة، وناموا نومًا عميقًا لم يعرفوه منذ أيام.

مع خيوط الشمس الأولى، استيقظ آرثر. كان الضوء الذهبي الناعم يدخل من النافذة، يملأ الغرفة دفئًا لطيفًا. التفت فرأى ليو وأوليفر لا يزالان نائمين بعمق، وارتسمت على وجه أوليفر ابتسامة هادئة، كأن حلمًا جميلًا جاء أخيرًا.

لكن شيئًا جذب انتباه آرثر... صوت خافت من الغرفة المجاورة. اقترب من الجدار، وسمع الرجل يتحدث بلغة غريبة، ليست الإنجليزية ولا لغة الجزيرة التي سمعوها من قبل. كانت النغمات مائلة للغناء، تحمل بين الصلابة والنعومة في آن واحد.

لم يفهم آرثر الكلمات، لكنه شعر بأن شيئًا ما يُحاك، شيء غامض لكنه ودّي.

فجأة، فتح الرجل الباب وابتسم له بلطف:

صباح الخير، أيها الشجاع! أرجو أن تكون قد نمت جيدًا!

بادل آرثر التحيّة... وفجأة بدأ ليو يتمطى في سريره، وتبعه تنهيدة راحة من أوليفر. التفتوا نحوه بلهفة، ورأوه يجلس ببطء.

قال أوليفر بصوت ضعيف:

أنا... أفضل بكثير

هرع الاثنان إليه واحتضناه، وضحكوا وبكوا قليلًا من الفرح. امتلأت الغرفة بدفء الحياة مجددًا.

قال الرجل:

هيا! إلى قاعة الطعام! أعددت لكم فطورًا يليق بأبطال مثلكم!

كانت القاعة مضاءة بأشعة الشمس، تطل على الأشجار العالية من خلال النوافذ. المائدة مزينة بعناية، تحتوي خبزًا دافئًا، فواكه مقطعة، أنواعًا من الجبن والعسل، وشاي برائحة لم يذوقوها من قبل.

جلسوا وأكلوا بشهية، وبين اللقمات، ضحكوا وتحدثوا عن الليلة السابقة، كأنها حلم بعيد قد مرّ بالفعل.

في نهاية الأكل، قال آرثر للرجل:
معذرة سيّدي! سمعتك هذا الصباح... كنت تتحدث مع أحد ما بلغة لم أفهمها، من كان معك؟

ضحك الرجل بهدوء:
كانت أمي وأختي... يريدان لقاءكم

فتح لهم الباب برفق، فتقدموا واحدًا تلو الآخر.

كان المشهد داخل الغرفة مؤثرًا...

امرأة عجوز مستلقية على سرير طبي، متصلة بأنابيب صغيرة وأجهزة مراقبة تصدر صفيرًا منتظمًا... ورغم الشحوب الذي غطى ملامحها، كان وجهها هادئًا ومطمئنًا، يحمل جمالًا مختلفًا... جمالًا نادرًا يبعث الطمأنينة.

وبجانبها، كانت امرأة شابة ذات عينين ساحرتين من أجمل ما ترى، تجلس على كرسي متحرك، يغطي وجهها بعض الضمادات البيضاء...

الرجل:
تفضلوا... هذه أمي، الأرض، وهذه بجانبها أختي، المرأة

آرثر باستغراب:
الأرض... المرأة...؟! ماذا تعني؟

الرجل مبتسما:
أعلم أن هذا غريب عليكم، لكن هذه هي الحقيقة، هذه أمنا الأرض التي نعيش فوقها... وهذه أختي المرأة... وأنا الرجل

الأرض:
أهلا بكم يا أبنائي... أنتم حقا أصدقاء نادرون

ليو بابتسامة خجولة:
نحن فقط فعلنا ما يجب أن يُفعل... أوليفر بالنسبة لنا أكثر من صديق، هو أخ لنا

المرأة (وهي تنظر إليهم بعينيها اللامعتين):
أوليفر... أأنت بخير الآن؟ بدا عليك الألم الشديد البارحة

أوليفر (بصوت واهن لكنه ممتن):
أنا بخير الآن، بفضلكم... وفضل رفاقي هؤلاء، لا أعلم كيف أرد لكم معروفكم

الرجل (يضحك بخفة ويضع يده على كتف آرثر):
بفضل اللهِ ثم بفضلكم عادت له الحياة. الصداقة التي بينكم نادرة، صدقوني، الصداقة لا تُقاس بعدد الأنفاس، بل بمن يقف معنا حين تختنق الأنفاس.

أوليفر:
وجودكم الليلة لم يكن مجرد صدفة... نشعر وكأننا في مكان خارج الزمن

المرأة (بابتسامة باهتة):
ربما... وربما جاء بكم اللهُ هنا لقلوبكم النقية لتضيء هذا المكان قليلا

ليو (يحاول التخفيف من الجو العاطفي):
حسنا، لا تصفونا بالحكمة والعظمة أكثر من اللازم، فنحن لا نعرف حتى كيف نُشعل نار المخيم من دون أن نحرق أنفسنا؟

ضحك الجميع بخفة، حتى الأرض ترسم ابتسامة متعبة على وجهها الشاحب. إلا آرثر ضلّ مستغربا وقال بلطف وانحناءة خفيفة:
نحن حقا ممتنون جدا لكرمكم...لكن إذا لم يكن في سؤالي حرج... كيف تكونين أنت الأرض... وأنت الرجل... وأنت المرأة... لم أفهم؟ وأيضا ما قصة الله؟ وهل هناك إله؟

الأرض (باتسامة):

أعلم أنه يصعب تصديقنا، فسأخبركم بأمور تخصكم لا يعلمها إلا أنتم
(وساقت لهم الأخبار منذ طفولتهم مما جعلهم يسلّمون لتصديقها)

آرثر:
لقد سلمنا أنك الأرض... فما قصة الإله؟ وهل هناك إله؟!

الأرض:
وهل في وجود الإله شك؟؟ أليس هذا الخلْق البديع من البشر، وأنا الأرض والسموات وغيرها دليل كاف على وجوده؟! لكن ما أصابني وأوصلني إلى ما ترون وأوصل ابنتي المرأة ما هو إلا البعد عن الله وعن دينه

آرثر:
أعتذر لو أكثرت من الأسئلة، لكن أريد أن أعرف الحقيقة... وقبل أن أسألكم كيف البعد عن الإله أوصلكم إلى هذه الحالة، وهو أمر يؤسفني جدا، إلا أنني أرغب في تحقيق وجود الإله أوّلا

الأرض (بابتسامة):

لا تعتذر يا بني! هذا من حسن أخلاقك، وما السؤال إلا نصف العلم... وهل هناك أولى وأعظم من السؤال عنه، سوى الله؟ خالق الكون! فما من نعمة إلا منه...فالبصر والسمع والصحة منه... وهذه المخلوقات من شجر وحديد وحيوان، خلقها نَعمة للبشر... فهو أرحم الراحمين... أرحم بعباده من الأم بولدها... ولكنّ أكثر الناس لا يعلمون

آرثر:
قد تعلمنا في المدرسة أنّ كلّ هذا جاء صدفة والأبحاث العلمية تدل عليها

الأرض:
لن نناقش الأبحاث العلمية ومصداقيتها الآن. والذين يقولون لا نؤمن إلاّ بما نرى، فهم في الواقع يؤمنون بما لا يرون، فَرُوحهم التي هي مادة حياتهم لا يرونها، هذا لمن يُؤمن بها، وعقلهم الذي يُميّزهم عن الحيوان، لا يرونه ولا يعرفون كنهه، وأفكارهم لا يرونها، ومشاعرهم التي هي مدار حياتهم من فرح وحزن وغيرهما، وغايتها السعادة، لا يرونها. وإنما يرون آثار هذه الأشياء، كما يرون أثر الجاذبية... فاللطيف من ذلك، أنّ مادة الحياة ومدارها وغايتها، كلّه غيبي. فسبحان الله ما أحكمه وما ألطفه.

كذلك، فهم يؤمنون أيضا بأمور لا يرونها ولا يفهمونها ثقة بالقائل، مثل ثقتهم بالطبيب، التي حياتهم بين يديه، أو أيّ عالم...
ومع ذلك فَسَأُجيبكم بشيء موجود في كل شخص، مغروس فيه مع ولادته

آرثر:
يوجد في كل شخص!... مولود معنا!... ما هو؟

الأرض:
أسألك، كيف جاءت فكرة الإله؟

آرثر:
عندما لم يفهم البشر بعض الظواهر الطبيعية، نسبوها إلى الإله، أو الخوف من الموت

الأرض:
ومع ذلك، لو سلمنا لما قلت، فمن أين جاءت فكرة الإله؟ ألا تعلم أنه لا يُوجد شيء بلا شيء! وكيف يتّفق جميع البشر على وجود الإله؟ بغض

النظر عن رؤيتهم للإله، أهو واحد أو متعدد...من أين جاءتهم الفكرة وهم متفرقون شرقا وغربا؟؟

آرثر:
بلى، بدأت أفهم إلى ما تقصدين

الأرض:
ثمّ، كيف جاءت فكرة عبادة الإله؟

آرثر:
كلامك صحيح... كيف جاءت؟

الأرض:
أسألك، كيف جاءتك فكرة الأكل والشرب والجماع؟

آرثر:
هذه غرائز طبيعية موجودة فينا... وُلدنا بها

الأرض:

كذلك الإله... غريزة طبيعية وُلدنا بها... وعبادته كذلك... وتشتد تلك الغريزة عند الموت وقرب الأجل... أولم تدعوا اللهَ أن ينقذ صديقكم؟

آرثر:

كان ذلك عفويا

الأرض:

إنّها الفطرة يا بني... تعلمُ حقيقةَ من هو المُخرج من الكرب

آرثر:

كلامك حقا معقول... لا أستطيع إنكاره... لكن ما سبب تعدد الديانات؟

الأرض:

سبب تعدد الديانات... قصة طويلة، لعلنا نتطرق لها لاحقا إن شاء الله...لكن من المؤكد أنها ليست كلها على الحق كما يريدها اللهُ... فما كان

من الله وهو أحكم الحاكمين وأرحم الراحمين أن يتركنا هملا بدون أن يبين لنا الطريقة الصحيحة لعبادته بل لمعرفته

آرثر:
وكيف نعرف الدين الصحيح؟

الأرض:
من خلال الدين نفسه... فالله أرسل رسلا ليبلغوننا عن دينه سبحانه وتعالى

آرثر:
كيف؟

الأرض:
كما قال بعض الأعراب، وقد سئل: بم عرفتَ أنه رسولُ الله؟، فقال: ما أَمَرَ بشيءٍ فقال العقلُ: ليته ينهى عنه، ولا نهى عن شيءٍ فقال العقلُ: ليته أَمَرَ به.

فدين الله لا يأمر إلا بالمعروف الذي تعرفه العقول، وتُقِرُّ بحُسْنه الفطر، فيأمَرَهم بما هو معروفٌ في نفسه عند كلِّ عقلٍ سليم، وينهاهم عمَّا هو منكرٌ في الطِّباع والعقول، بحيث إذا عُرِض على العقول السَّليمة أنكرته أشدَّ الإنكار، كما أنَّ ما أمَرَ به إذا عُرِض على العقل السَّليم قَبِله أعظمَ قبولٍ وشَهِد بحُسْنه.[1]

آرثر:

هل تقصدين أن الطيّب والخبيث أمورا منغمسة فينا وليست من تحديد البشر؟

الأرض:

ما رأيك في السرقة؟ هل هي من القيم الطيّبة أم الخبيثة؟

آرثر:

من الخبيثة

الأرض:

[1] مفتاح دار السعادة، ابن القيم

لماذا؟

آرثر:
لأنها تعدي عن الغير، وتُسبّب مشاكل

الأرض:
لو قلتُ لك أنّ في بلدي اتفقنا على أنّ السرقة جائزة بل من القيم الطيّبة، فما رأيك؟

آرثر:
صعب تصوّر ذلك، لكن أظن أنّ الأَمْنَ سيُفقد، بل سيتّجه سَعْيُ النّاس إلى السرقة عِوضا عن الانتاج الحقيقي، وحينها تخرب البلاد

الأرض:
لهذا لم يُوجد بلد أو قبيلة عبر مرّ التاريخ جعلت السرقة من القيم الصالحة. ومن أجازت به، مثل مدينة سبارتا، إنما أجازته لجنودها الصغار لتعليمهم واستعدادهم للحرب من فنّ التخفي، ولم تراه من القيم الصالحة، بل تُعاقب من كُشف أمره

آرثر:
كلامك صحيح، لم أسمع بذلك

الأرض:
إذا ماذا نستنتج؟

آرثر:
أنّ السرقة من القيم الخبيثة

الأرض:
حقيقة مطلقة، وليست من صنع البشر
هل كنت ستُحب من يُعذّبك، ويسرق مالك، ويغتصب أهلك، ويقتل أطفالك؟

آرثر:
ماهذا المثال يا أمّنا؟! بالتأكيد لا

الأرض:
هل من الممكن أن يتفق البشر على إباحته؟

آرثر:
مُستحيل، ومن قال بذلك فهو مجنون مختل العقل

الأرض:
وهل كنت ستُحب من أحسن إليك، وأكرمك، وأنقذ حياتك، واحترمك وقدّرك

آرثر:
بالتأكيد نعم

الأرض:
بل الطفل وقبل أن يتكلم أو يُميّز، له إحساس بالعدل والظلم، يُعبّر لك ذلك من خلال تعابير وجهه وصراخه. ولديه أيضا منذ الولادة: إدراك للوجوه، قدرة فطرية للّغة، ميل للتقليد، خوف فطري من الغرباء، تفضيل معين للأصوات والأنماط... المشاعر نفسها من فرح وغضب

وغيرهما دليل على وجود الفطرة، فليس البشر من حدّدها وحدّد أسبابها، كالفرح عند النجاح مثلا والغضب عند الظلم... فالإنسان إذا ليس هو صفحة بيضاء بدون فطرة ولا استعداد على رأي جون لوك وهيوم. أليس كذلك؟

آرثر:
بلى أنت محقّة!

الأرض:
إذا، القيم الطيّبة والخبيثة منغمسة فينا، فمن يقول بالنسبيّة كمن يقول النار لا تحرق بذاتها إنما أحرقت لأننا قرّرنا على أنها تحرق. فلو قررنا عكس ذلك لأصبحت كما نقرره!!!

آرثر:
صحيح، تلك قوانين طبيعية، وهذه قوانين خلقيّة
الذي يُحيّرني بعد اظهارك لي حقيقة النسبية وبساطتها، كيف اقتنع بها رجال معروفون بالفكر والذكاء؟ واتبعهم في ذلك كثير من البشر والدُّوَل؟

الأرض:

لقد سألت عن أمر في غاية الأهمية، بل إن لم يكن أهمها... **لمن تفتح الحقيقةُ بابَها؟ ولمن تُمهّد له السبيلَ لبيتِها؟** فليس كلّ النّاس مُرحّب به عندها، بل بالصدّ تُقابلهم

آرثر والأولاد:

لقد شوّقتنا لمعرفة من هم هؤلاء؟

الأرض:

هؤلاء من نزّهوا أنفسهم بالصفات التي ذكرها أبو ريحان محمّد بن أحمد البيروني بقوله : "تنزيه النفس عن العوارض المردئة لأكثر الخلق، والأسباب المعمية لصاحبها عن الحق وهي كالعادة **المألوفة والتعصب والتظافر، واتباع الهوى، والتغالب بالرئاسة، وأشباه ذلك**، فإن الذي ذكرته أولى سبيل يسلك بأن يؤدي إلى حاق المقصود، وأقوى معين على إزالة ما يشوبه من شوائب الشبه، والشكوك، **وبغير ذلك لا يتأتى لنا نيل المطلوب، ولو بعد العناء الشديد، والجهد الجهيد**".[2] اهـ

[2] الآثار الباقية من القرون الخالية، البيروني

وذكرها أيضا ابن الهيثم إذ قال: ""ولما كان ذلك كذلك ، وكانت حقيقة هذا المعنى مع اطراد الخلاف بين أهل النظر المتحققين بالبحث عنه على طول الدهر ملتبسة، وكيفية الإبصار غير متيقنة، رأينا أن نصرف الاهتمام إلى هذا المعنى بغاية الإمكان ، ونخلص العناية به، ونتأمله، ونوقع الجد في البحث عن حقيقته، ونستأنف النظر في مبادئه ومقدماته، ونبتديء في البحث باستقراء الموجودات، وتصفح أحوال المبصرات، ونميز خواص الجزئيات، ونلتقط بالاستقراء ما يخص البصر في حال الإبصار، وما هو مطرد لا يتغير وظاهر لا يشتبه من كيفية الإحساس، ثم نترقى في البحث والمقاييس على التدريج والترتيب، مع انتقاد المقدمات والتحفظ في النتائج، ونجعل **غرضنا في جميع ما نستقرئه ونتصفحه استعمال العدل لا اتباع الهوى ، ونتحرى في سائر ما نميزه وننتقده طلب الحق لا الميل مع الآراء ، فلعلنا تنتهي بهذا الطريق إلى الحق** الذي به يثلج الصدر، ونصل بالتدرج والتلطف إلى الغاية التي عندها يقع اليقين، ونظفر مع النقد والتحفظ بالحقيقة التي يزول معها الخلاف وتنحسم بها مواد الشبهات. وما نحن، مع جميع ذلك، براء مما هو في طبيعة الإنسان

من كدر البشرية، ولكنّا نجتهد بقدر ما هو لنا من القوة الإنسانية، ومن اللهَ نستمد المعونة في جميع الأمور."[3]اهـ

وكذلك ذكرها سقراط : "**س : أوَيمكنك أن تجد عيبًا في عملٍ يتطلب ممَّن** تعاطاه عن جدارة، أن يكون ذا ذاكرة حافظة، سريع الخاطر، زكي الفؤاد، حلو الشمائل، **مُحبًّا وحليفًا للحقيقة والعدالة والشجاعة والعفاف؟**"[4].اهـ

وكذلك ذكرها منسيوش الحكيم الصيني : "تُرى ماذا يُقصد، بالضبط، من التأكيد على ضرورة البدء بتهذيب النفس، لمَن أراد تقويم الأخلاق؟ «في الرد على هذا، نقول»: **إنَّ نفسًا امتلأت حقدًا وكراهية لن تنصاع للرشاد، وإنَّ قلبًا واجفًا لن يستجيب لداعي الحكمة، وباطنًا زائغًا بالأهواء والشهوات لن يرعوي، ومكامن مترعة بالمرارة والشكوى لن تنصت للمثل العليا** (العالية، بالأحرى).

عندما تتحول النفس عمَّا ينبغي لها أن تتوطَّن عليه من طباع وتنصاع له من مبدأ قويم، يضيع من العين البصر، ومن الأذن السمع، وتصير النكهة

---

[3] المناظر، ابن الهيثم
[4] الجمهورية، أفلاطون

بغير مذاق، والمذاق بغير طعم؛ فلذلك قيل إنَّ تقويم الأخلاق يستلزم، أولًا، ضبط النفس."[5]. اهـ

وقال أيضا: " ما أعظم ما سلك القديسون من سُبل، وما أرحب ساحتهم وأصفى موردهم، وقد زادت بهم الدنيا جلالًا، وفاضت بهم الموجودات كثرةً، حتى تمجدوا مجدًا بلغوا به عنان السماء. ما أوسع حلمهم، وأوفر ما اتسعت له صدورهم من الرحمة، «ولقد قيل»: إنَّ أصول المعاملات في ثلاثمائة مسألةٍ، والدرجة الرفيعة من الهيبة والجلال في ثلاثة آلاف «قاعدة مذهبية»، لا يتحقق منها شيء إلا على يد قديس؛ فمن ثم قيل: **إنَّ أحدًا لن يبلغ أشرف غاية إلَّا إذا تزود بأرفع منزلة من الأخلاق**، هكذا يتجه الفاضل الحكيم صوب أنبل الخلق، ويسلك طريقًا يطلب فيه العلم والمعرفة، ويدقق في أصول الأشياء، فإذا ما بلغ في مسيرة بحثه الحدود العامة للمعرفة، راح يستقصي أغوار التفاصيل؛ وإذا اهتدى إلى صفوة الحكمة، اجتهد في التزام حد «الاعتدال» الأوسط فهو، بذلك، يرسّخ

[5] الكتب الأربعة المقدسة

مبادئ قديمة قد سبق له مطالعتها، ويفيد معرفة جديدة عرضت له في طريقه، هنالك ينشرح صدره لأصول الآداب في بساطةٍ وعمقٍ وإخلاصٍ.

ومن ثم، فلا يتكبرنَّ كريم «ذو مكانة»، ولا يتردنَّ لئيم «وضيع»، وليجتهدنَّ في انتهاج السبيل القويم، إذا ما كانت الأحوال العامة تحض على أشرف المسالك، أو لينعزلنَّ خلف ستار الصمت، إذا فسد الزمان وانمحى الطريق، وتأمل هذا البيت من «كتاب الشِّعر القديم» حيث يرد بما نصه:

«إنَّ المرء، من فطنته،

وجلاء بصيرته

حصنٌ يلوذ به ووجاء.»

ألا تجد، هنا، غاية المعنى المشار إليه ودلالة مغزاه!" اهـ

وكانوا يعرفون الحكيم القديس بتلك الصفات كما قال منسيوش: "**لا توجد الحكمة والكياسة على الأرض، إلَّا في قلب قديس جليل القدر، رفيع المكانة**، وستجده أقدر الناس جميعًا على تولى زمام الأمور كافةً، ذلك أنَّ القديسين بما حازوا من **حلم وأناة وسعة صدر وهدوء طبع**، هم أقدر الناس على طي الدنيا بأسرها في قبضة أيديهم، وقد أوتوا من الجلال والإيمان والاستقامة ما مكَّن لهم التقدير والتبجيل في النفوس، وكذلك أيضًا فقد أصابوا القدر العظيم من الدقة والفهم في مطالعة الوثائق ومعرفة دقائق تبويبها وأقسامها، حتى استنارت بصائرهم وصاروا يفرقون بين الحق والباطل، واعلم أنَّ القديس الحكيم هو **ابن الوقت الذي يعيش فيه**، وعليه تسري أحكام زمانه، فيدور في فلك الوقت بغير مدى، ويغوص في باطن الزمان بغير حد، ويسمو حتى يُجاوز أقطار السماء (حدود الأبصار)، ثم يدنو حتى يستقر في جوف الماء (غياهب الأسرار)، فإذا فعل شيئًا فقد

بلغ تمام الإجادة وكان جديرًا بالتقدير والإعجاب، وإذا تحدَّث، أصاب القول السديد حتى أُخذت عنه فنون المقال، وإذا ولِيَ أمرًا من الشئون العامة، سار بالحسنى حتى انشرحت له صدور الناس؛ ولهذا، تجد مثل ذلك القديس الحكيم ذائع الشهرة بعيد الصيت، قد تحدث الناس جميعًا بأمره، سواء داخل الممالك العامرة أو بين أهل القفار، وعلى تخوم الأحراش. فما من أرض عبرت بها سفائن، أو مرت في دروبها قوافل ومواكب، أو أظلها سحاب، أو أشرق في نهارها النور، وتداعى فوقها الليل والقمر، وبلل وديانها الندى وهطل المطر، وإلَّا تمجَّدت به، وما من روح حي تنسم نسمة الحياة إلَّا أحبه وعظَّمه غاية التعظيم، فمن أجل هذا صار الحكيم القديس إلى مرتبة تحاذي جلال السماء."اهـ

وهذا من رحمة الله -عز وجل- ولطفه بنا، بعد أن خلقنا على فطرة طيّبة، وحبّب إلينا الخير وأهله، وأبغض إلينا الشرّ وأهله، أرسل إلينا رُسلا على أحسن الأخلاق وأعظمها، وعلى أوفر عقلا وأحكمه. كلّ هذا تسهيلا منه -عز وجل- لنا لاتباع الخير والعمل به، وترك الشرّ والبعد عنه.

وبأخلاقه عرفت خديجةُ زوجةُ النبي محمّد ﷺ ورضي الله عنها أنّ زوجها رسولٌ من عند الله. فعندما أُنزل عليه الوحي أوّل مرّة، خشي النّبي ﷺ على نفسه، ورجع إلى زوجته يُخبرها الخبر، فقالت له، صاحبة العقل الراجح : "كَلّا، أَبْشِرْ، فَوَاللهِ لا يُخْزِيكَ اللهُ أَبَداً، إِنَّكَ لَتَصِلُ الرَّحِمَ، وَتُصْدِقُ الحَدِيثَ، وَتَحْمِلُ الكَلَّ، وَتُقْرِي الضَيْفَ، وَتُعِينُ عَلَى نَوائِبِ الحَقِّ."[6]

نعم وقد بيّن ذلك الله -عز وجل- في القرآن في أوضح بيان. فقال تعالى مُبيّنا اصطفاءه للأنبياء {* إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ} [آل عمران : 33]

وقال تعالى مُبيّنا فضل هود -عليه السلام- وعفّته {يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ} [هود : 51]

[6] صحيح البخاري

وقال تعالى على لسان قوم نبيّه صالح -عليه السلام- {قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَا ۖ أَتَنْهَانَا أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ} [هود : 62] أي كُنّا نرجو أن تكون فينا سيدا لعقلك قبل هذا القول الذي قلته لنا. وهذه شهادة منهم على مكارم خلقه ومحاسن الشيم، وأنّه من خيار قومه.

وقال تعلى عن إبراهيم -عليه الصلاة والسلام- {* وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ} [الأنبياء : 51]

وجعله إماما يُقتدى به، قال تعالى {* وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ} [البقرة : 124] وكيف يكون إماما من لم يكن أعظم الخلْق أخلاقا؟!

وقال تعالى مُبيّنا حلمه -عليه الصلاة والسلام {إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُّنِيبٌ} [هود : 75]

وقال تعالى {وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ (45) إِنَّا أَخْلَصْنَاهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ (46) وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ (47) وَاذْكُرْ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ ۖ وَكُلٌّ مِّنَ الْأَخْيَارِ (48)} [ص : 45-48]

وقال تعالى واصفا أولى العزم من الرسل بالصبر {فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ ۚ} [الأحقاف : 35]

وقال تعالى واصفا إسماعيل -عليه السلام- بالصدق {وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ ۚ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا} [مريم : 54]

وقال تعالى عن لوط -عليه السلام {وَلُوطًا آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَت تَّعْمَلُ الْخَبَائِثَ ۗ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَاسِقِينَ} [الأنبياء : 74]

وقال تعالى مُبيّنا فضل يوسف -عليه السلام- وعفته وإخلاصه {وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ ۖ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَن رَّأَىٰ بُرْهَانَ رَبِّهِ ۚ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ ۚ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ} [يوسف : 24]

وقال تعالى واصفا أيّوب -عليه السلام- بالصبر {إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا ۚ نِّعْمَ الْعَبْدُ ۖ إِنَّهُ أَوَّابٌ} [ص : 44]

وقال تعالى عن موسى -عليه السلام- {قَالَ يَا مُوسَىٰ إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ} [الأعراف : 144]

وقال تعالى مُبينا فضل داوود -عليه السلام- {يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ۚ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ

الْحِسَابِ} [ص : 26] وكيف يجعله الله خليفة ويُوجد من هو خير منه أخلاقا وعقلا؟ وكيف يجعله يحكم بين الناس إذا كان ضعيف العقل؟

وقال تعالى عن يحيى -عليه السلام- {يَا يَحْيَىٰ خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ ۖ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا} [مريم : 12]

وقال تعلى مُبينا فضل إدريس وسائر الأنبياء عليهم الصلاة والسلام- {وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ ۚ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا (56) وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا (57) أُولَٰئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ مِن ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا ۚ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَٰنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا ۩ (58)} [مريم : 56-58]

وقال تعالى عن عيسى -عليه السلام- {وَلَمَّا جَاءَ عِيسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِالْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ ۖ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ} [الزخرف : 63]

كيف يُبيّن لهم إذا لم يكن فاهما لاختلافاتهم؟!

وقال تعالى {وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (83) وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ ۖ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَارُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (84) وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ (85) وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا ۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ (86)} [الأنعام : 83-86]

وقال تعالى عن خاتم الأنبياء والمرسلين محمد -عليه الصلاة والسلام-
{وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ} [القلم : 4]
وقال تعالى مُبيّنا أمانته {وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ ۙ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَٰذَا أَوْ بَدِّلْهُ ۚ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَاءِ نَفْسِي ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ ۖ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ} [يونس : 15]
وقد كان قومه يلقبونه قبل ذلك بالصادق الأمين.

وقال تعالى عنه {وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ} [الأنبياء : 107]

وقال تعالى مُبيّنا رحمته ورأفته بالمؤمنين {لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ} [التوبة : 128]

وقال تعالى حاثا الناس على التأسي بالنبي محمد -صلى الله عليه وسلم - {لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا} [الأحزاب : 21]

وقال تعالى عنه {بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ ۗ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ} [النحل : 44]

وقال {وَمَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ ۙ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ} [النحل : 64]

فكيف يُبيّن لهم من كان عقله ضعيف؟! وكيف يكون صادقا فيما يُبيّن من كان متكبّرا ومن كان وضيعا شهوانيّا؟

وقال تعالى عنه أيضا {ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ ۖ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ} [النحل : 125]

وكيف يُجادل من كان أحمقا، أو ضعيف العقل، أو لا يفهم مُراد الله -عز وجل-، أو لا يفهم شُبهات المُجادلين والردّ عليها؟!

فهذا بعض كلام الله -عز وجل- عن أنبياءه ورسله، وعن خُلقهم وعقلهم، فهو كما قال عن نفسه -سبحانه وتعالى- {اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ۗ} [الأنعام : 124]

هذا مُجملا...أمّا تفصيل ذلك فهو كثير لا أظن الوقت يسعنا للحديث عنه

الأولاد:

نحن في أوّل يوم من إجازتنا، فالوقت متّسع لدينا، إلا إن كان في بقائنا حرج!

الأرض:

أعتذر إن فهمتم مني هذا، بل هذا البيت بيتكم، على الرحب والسعة...

الأولاد:

نحن متشكرين جدا لكم! وقد تعلمنا منكم أهمية العلم وحقائقه

الأرض مُبتسمة:

حسنا حسنا... سأذكر لكم بعض الأمثلة

المثال الأوّل، قصة إبراهيم -عليه الصلاة والسلام- وتكسيره للأصنام... دعا إبراهيم -عليه الصلاة والسلام- قومه للإسلام، عبادة الله وحده وتَرْك الشرك به، فلم يقبلوا. فلمّا ذهب القوم في عيدٍ لهم، تركوا آلهتهم الأصنام بدون حارس، فذهب إليها إبراهيم وحطّمها إلا كبيرهم، تركه لحيلة عبقرية. قال تعالى قاصا الحدث {فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ

لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ (58) قَالُوا مَن فَعَلَ هَٰذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ (59) قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ (60) قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَىٰ أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ (61) قَالُوا أَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ (62) قَالَ **بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِن كَانُوا يَنطِقُونَ (63) فَرَجَعُوا إِلَىٰ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنتُمُ الظَّالِمُونَ** (64) ثُمَّ نُكِسُوا عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰؤُلَاءِ يَنطِقُونَ (65) قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ (66) أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (67)} [الأنبياء : 58-67]

أرأيتم كيف قام عليهم الحجّة وبرهن لهم أنّ أصنامهم لا تنفع ولا تضر! فكيف تكون آلهة؟!

فلما عجزوا عن مناظرته التجؤوا كما يلتجئ كل ظالم متكبر، ألا وهي القوة، {قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ} [الأنبياء : 68]

وانظروا إلى أسلوب خطابه عند دعوة أبيه، قال تعالى {وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ ۚ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا (41) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا

يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا (42) يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا (43) يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ ۖ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا (44) يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا (45) قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ ۖ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ ۖ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا (46)} [مريم : 46-41]

واسمعوا مناظرته للنمرود

{أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ ۖ **قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ** ۗ وَاللهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ} [البقرة : 258]

المثال آخر، قصة يوسف -عليه السلام-

قال تعالى قاصا حكايته في السجن، وقد سُجن ظلما {دخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانِ ۖ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا ۖ وَقَالَ الْآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ ۖ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ ۖ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ۖ (36) قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ۚ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي ۚ إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ (37) وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ ۚ مَا كَانَ لَنَا أَن نُّشْرِكَ بِاللَّهِ مِن شَيْءٍ ۚ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ (38) يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ (39) مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ ۚ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ۚ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (40) يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا ۖ وَأَمَّا الْآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِ ۚ قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ (41)} [يوسف : 37-41]

فيها من الذكاء:

فـ { قَالَ } لهما مجيبا لطلبتهما: { لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا } أي: فلتطمئن قلوبكما، فإني سأبادر إلى تعبير رؤياكما، فلا يأتيكما غداؤكما، أو عشاؤكما، أول ما يجيء إليكما، إلا نبأتكما بتأويله قبل أن يأتيكما.

ولعل يوسف عليه الصلاة والسلام قصد أن يدعوهما إلى الإيمان في هذه الحال التي بدت حاجتهما إليه، ليكون أنجع لدعوته، وأقبل لهما.

ثم قال: { ذَلِكُمَا } التعبير الذي سأعبره لكما { مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي } أي: هذا من علم الله علمنيه وأحسن إليَّ به، وذلك { إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ }

{ وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ } ثم فسر تلك الملة بقوله: { مَا كَانَ لَنَا } أي: ما ينبغي ولا يليق بنا { أَنْ نُشْرِكَ بِاللهِ مِنْ شَيْءٍ } بل نفرد اللهَ بالتوحيد، ونخلص له الدين والعبادة.

{ ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ } أي: هذا من أفضل مننه وإحسانه وفضله علينا، وعلى من هداه الله كما هدانا، فإنه لا أفضل من منة الله على العباد بالإسلام والدين القويم، فمن قبله وانقاد له فهو حظه، وقد حصل له أكبر النعم وأجل الفضائل.

{ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ } فلذلك تأتيهم المنة والإحسان، فلا يقبلونها ولا يقومون لله بحقه، وفي هذا من الترغيب للطريق التي هو عليها ما لا يخفى، فإن الفتيين لما تقرر عنده أنهما رأياه بعين التعظيم والإجلال -وأنه محسن معلم- ذكر لهما أن هذه الحالة التي أنا عليها، كلها من فضل الله وإحسانه، حيث منَّ عليَّ بترك الشرك وباتباع ملة آبائه، فبهذا وصلت إلى ما رأيتما، فينبغي لكما أن تسلكا ما سلكت.

ثم صرّح لهما بالدعوة، فقال: { يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ } أي: أرباب عاجزة ضعيفة لا تنفع ولا تضر، ولا تعطي ولا تمنع، وهي متفرقة ما بين أشجار وأحجار وملائكة وأموات، وغير ذلك من أنواع المعبودات التي يتخذها المشركون، أتلك { خَيْرٌ أَمِ اللهُ }

الذي له صفات الكمال، { الْوَاحِدُ } في ذاته وصفاته وأفعاله فلا شريك له في شيء من ذلك.{ الْقَهَّارُ } الذي انقادت الأشياء لقهره وسلطانه، فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن { ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها } ومن المعلوم أن من هذا شأنه ووصفه خير من الآلهة المتفرقة التي هي مجرد أسماء، لا كمال لها ولا أفعال لديها.

{ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ }

أي: كسوتموها أسماء، سميتموها آلهة، وهي لا شيء، ولا فيها من صفات الألوهية شيء، { مَا أَنْزَلَ اللهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ } بل أنزل الله السلطان بالنهي عن عبادتها وبيان بطلانها، وإذا لم ينزل الله بها سلطانا، لم يكن طريق ولا وسيلة ولا دليل لها.

لأن الحكم لله وحده، فهو الذي يأمر وينهى، ويشرع الشرائع، ويسن الأحكام، وهو الذي أمركم { أن لا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ } أي: المستقيم الموصل إلى كل خير، وما سواه من الأديان، فإنها غير مستقيمة، بل معوجة توصل إلى كل شر.

{ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ } حقائق الأشياء، وإلا فإن الفرق بين عبادة الله وحده لا شريك له، وبين الشرك به، أظهر الأشياء وأبينها.

ولكن لعدم العلم من أكثر الناس بذلك، حصل منهم ما حصل من الشرك،.فيوسف عليه السلام دعا صاحبي السجن لعبادة الله وحده، وإخلاص الدين له، ثم إنه عليه السلام شرع يعبر رؤياهما، بعد ما وعدهما ذلك"[7]اهـ

ثمّ موقفه الشّهم مع الملك:

﴿وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ (٥٠) قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدْتُنَّ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ قَالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ (٥١) ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي

[7] تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، السعدي

كَيْدَ الْخَائِنِينَ (٥٢) وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [يوسف: ٥٠ - ٥٣]. لما أحاطَ الملك علمًا بكمال علم يُوسف، وتمام عقله ورأيه السديد وفهمه، أمرَ بإحضاره إلى حضرتِه، ليكونَ من جملة خاصَّتِه. **فلما جاءه الرسولُ بذلك أحبَّ ألا يخرجَ حتى يتبينَ لكلِّ أحد أنه حُبسَ ظلمًا وعدوانًا، وأنه بريءُ السَّاحة مما نسبوه إليه بهتانًا** ﴿قَالَ ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ﴾ يعني: الملك ﴿فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ﴾ قيل: **معناه إنَّ سيدي العزيز يعلمُ براءتي مما نُسبَ إليَّ. أي: فمر الملكَ فليسألهنَّ: كيف كان امتناعي الشديد عند مراودتهنَّ إيايَ وحثّهنَّ لي على الأمر الذي ليس برشيدٍ ولا سديدٍ؟ فلما سُئلنَ عن ذلك اعترفنَ بما وقع من الأمر،** وما كان منه من الأمر الحميد"[8] اهـ

قصّته في تفسير رؤيا الملك، وإرشادهم للحل

[8] تفسير ابن كثير

{يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ لَّعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ (46)} قال يوسف {قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا} أي: يأتيكم الخصب والمطر سبع سنين متواليات ففسر البقر بالسنين، لأنها تثير الأرض التي تستغل منها الثمرات والزروع، وهن السنبلات الخضر، ثم أرشدهم إلى ما يعتمدونه في تلك السنين، فقال {فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ (47)} أي: مهما استغللتم في هذه السبع السنين الخصب، فاخزنوه في سنبله ليكون أبقى له وأبعد عن إسراع الفساد إليه إلا المقدار الذي تأكلونه، وليكن قليلًا قليلًا، لا تسرفوا فيه لتنتفعوا في السبع الشداد، وهن السبع السنين المحل التي تعقب هذه السبع المتواليات، وهن البقرات العجاف اللاتي تأكل السمان، لأن سني الجدب يؤكل فيها ما جمعوه في سني الخصب، وهن السنبلات اليابسات، وأخبرهم أنهن لا ينبتن شيئًا، وما بذروه فلا يرجعون منه إلى شيء، ولهذا قال: {ثُمَّ يَأْتِي مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ (48)} ثم بشرهم بعد الجدب العام المتوالي بأنه يعقبهم بعد ذلك عام فيه

يُغاث الناس، أي: يأتيهم الغيث وهو المطر وتغل البلاد، ويعصر الناس ما كانوا يعصرون على عادتهم من زيت ونحوه، وسكر ونحوه، {ثُمَّ يَأْتِي مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ (49)} [يوسف : 46-49]"[9] اهـ

المثال آخر، قصة موسى عليه السلام

"وَجَاءَ مُوسَى وَهَارُونُ إِلَى فِرْعَوْنَ وَقَامَا فِي مَجْلِسِهِ يَدْعُوَانِهِ إِلَى الله وَغَضِبَ الْجَبَّارُ مِنْ جَرَاءَةِ مُوسَى وَقَالَ فِي عُلُو

مَنْ تَكُونُ أَيُّهَا الشَّابُّ حَتَّى تَقُومَ فِي مَجْلِسِي وَتَعِظُنِي. أَلَسْتَ ذَلِكَ الْغُلَامُ الَّذِي الْتَقَطْنَاهُ مِنَ الْبَحْرِ ؟! {أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ . وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ} .

وَلَمْ يَغْضَبْ مُوسَى وَلَمْ يَكْذِبْ وَلَمْ يَجْحَدْ وَلَمْ يَعْتَذِرْ بَلْ أَجَابَ فِي صَرَاحَةٍ وَوَقَارٍ .

---

[9] تفسير ابن كثير

{قَالَ فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ} ،

وَقَالَ مُوسَى : إِنَّكَ يَا فِرْعَوْنَ تَمُنُّ عَلَيَّ بِالتَّرْبِيَةِ وَلَكِنْ لا تَنْظُرُ لِمَاذَا وَقَعْتُ بِيَدِكَ وَكَيْفَ أَمْكَنَكَ أَنْ تُرَبِّيَنِي؟ .

إِنَّكَ لَوْ لَمْ تَأْمُرْ بِقَتْلِ الْأَطْفَالِ لَمَا أَلْقَتْنِي أُمِّي فِي النِّيلِ وَمَا وَقَعْتُ بِيَدِكَ .

وَهَلْ هَذِهِ نِعْمَةٌ تُعَدُّ وَتُذْكَرُ فِي جَنْبِ ظُلْمِكَ وَقَسَاوَتِكَ ؟

إِنَّكَ عَامَلْتَ قَوْمِي كُلَّهُمْ مُعَامَلَةَ الْحَمِيرِ وَالدَّوَابِّ .

وَكُنْتَ تَزْجُرُهُمْ زَجْرَ الْكِلابِ .

وَكُنْتَ تَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ .

فَأَيُّ فَضْلٍ لَكَ إِذَا كَفَلْتَ طِفْلاً مِنْهُمْ؟! وَذَلِكَ أَيْضاً عَنْ جَهْلٍ وَخَطَا !

{وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَ بَنِي إِسْرَاءِيلَ} .

وَعَجِزَ فِرْعَوْنُ وَلَمْ يَجِدْ جَواباً، فَأَرَادَ أَنْ يَتَخَلَّصَ فَقَالَ :

{وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ }الَّذِي أَسْمَعُكَ تَذْكُرُهُ؟

و{قَالَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُم مُوقِنِينَ }.

غَضِبَ فِرْعَوْنُ مِنْ هَذَا الْجَوَابِ وَأَرَادَ أَنْ يَغْضَبَ أَهْلُ الْمَجْلِسِ وَيَتَعَجَّبُوا

{قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْمَعُونَ ؟!!}

وَلَمْ يَقْطَعْ مُوسَى الْكَلامَ بَلْ ضَرَبَ فِرْعَوْنَ ضَرْبَةً ثَانِيَةً .

{قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ} .

واشْتَدَّ غَضَبُ فِرْعَوْنَ وَلَمْ يَصْبِرْ وَقَالَ : {إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ} .

وَلَمْ يَقْطَعْ مُوسَى الْكَلامَ وَضَرَبَ فِرْعَوْنَ ضَرْبَةً ثَالِثَةً .

{قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ} .

وَأَرَادَ فِرْعَوْنُ أَنْ يَشْغَلَ مُوسَى عَنْ هَذَا الْمَوْضُوعِ المر.

وَأَرَادَ فِرْعَوْنُ أَنْ يُثِيرَ غَضَبَ مَلَئِه .

فَقَالَ : {فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى ؟!}

قَالَ فِرْعَوْنُ فِي نَفْسِهِ : إِذَا قَالَ مُوسَى إِنَّهُمْ كَانُوا عَلَى الْحَقِّ .

قُلْت : فَإِنَّهُم كَانُوا يَعْبُدُونَ الأَصْنَامَ !

وَإِذَا قَالَ مُوسَى إِنَّهُمْ كَانُوا فِي ضَلَالَةٍ وَسَفَاهَةٍ،

غَضِبَ أَهْلُ الْمَجْلِسِ وَقَالُوا إِنَّ مُوسَى سَبَّ آبَاءَنَا .

ولَكِنَّ مُوسَى كَانَ أَعْقَلَ مِنْ فِرْعَوْنَ وَكَانَ مُوسَى عَلَى نُورٍ من رَبِّهِ، فَقَالَ {عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى} .

ثُمَّ أَنْشَأَ مُوسى يَقُولُ مَا كَانَ فِرْعَوْنُ يَفِرُّ مِنْهُ وَيَتَخَلَّصُ :

{لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً} .

وَتَحَيَّرَ فِرْعَوْنُ وَبُهِتَ وَلَمْ يَدْرِ مَا يَقُولُ فَقَالَ مَا تَقُولُهُ الْمُلُوكُ كُلُّهُمْ إِذَا عَجَزُوا وَغَضِبُوا .

{قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَاهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ}"[10] اهـ

المثال الآخر، داود وابنه سليمان -عليهما السلام-

{وَدَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ (78) فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ ۚ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ ۚ وَكُنَّا فَاعِلِينَ (79)} [الأنبياء : 78-79]

وداود وسليمان إذ يحكمان في الحرث إذ نفشت فيه غنم القوم كرم قد أنبتت عناقيده ، فأفسدته . فقضى داود بالغنم لصاحب الكرم، فقال

[10] قصص النبيين للأطفال، أبو الحسن علي الندوي

سليمان : غير هذا يا نبي الله! قال : وما ذاك؟ قال : تدفع الكرم إلى صاحب الغنم ، فيقوم عليه حتى يعود كما كان، وتدفع الغنم إلى صاحب الكرم فيصيب منها حتى إذا كان الكرم كما كان دفعت الكرم إلى صاحبه ، ودفعت الغنم إلى صاحبها ، فذلك قوله : ففهمناها سليمان."

وحادثة أخرى مع سليمان -عليه السلام-.

كَانَتِ امْرَأَتَانِ معهُما ابْنَاهُمَا، جَاءَ الذِّئْبُ فَذَهَبَ بِابْنِ إِحْدَاهُمَا، فَقَالَتْ لِصَاحِبَتِهَا: إِنَّمَا ذَهَبَ بِابْنِكِ، وَقالتِ الأُخْرَى: إِنَّمَا ذَهَبَ بِابْنِكِ، فَتَحَاكَمَتَا إلى دَاوُدَ عليه السَّلَامُ فَقَضَى بِهِ لِلْكُبْرَى، فَخَرَجَتَا عَلَى سُلَيْمَانَ بنِ دَاوُدَ عليهما السَّلَامُ فأخْبَرَتَاهُ، فَقَالَ: ائْتُونِي بالسِّكِّينِ أَشُقُّهُ بيْنَهُمَا، فَقالتِ الصُّغْرَى: لا تَفْعَلْ يَرْحَمُكَ الله هو ابنُهَا فَقَضَى بِهِ لِلصُّغْرَى.[11]

وخاتمهم النبي محمد ﷺ

[11] صحيح البخاري ومسلم

لما بنت قريش الكعبة في سنة خمس وثلاثين من عمره، فوصلوا إلى موضع الحجر الأسود، اشتجروا فيمن يضع الحجر موضعه، فقالت كل قبيلة: نحن نضعه، ثم اتفقوا على أن يضعه أول داخل عليهم، فكان رسول الله ﷺ فقالوا: **جاء الأمين، فرضوا به**، فأمر بثوب فوضع الحجر في وسطه، وأمر كلّ قبيلة أن ترفع بجانب من جوانب الثوب ثم أخذ. الحجر فوضعه موضعه - صلى اللهَ عليه وسلم-. ثم طفق لا يزداد فيهم على السِّنِّ إلاّ رضاً، حتى سموه الأمين، قبل أن ينزل عليه الوحي.

وحادثة أخرى، أَنَّ امْرَأَةً مِن جُهَيْنَةَ جاءَتْ إلى النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ، فقالَتْ: إنَّ أُمِّي نَذَرَتْ أنْ تَحُجَّ، فَلَمْ تَحُجَّ حتَّى ماتَتْ؛ أفَأَحُجُّ عَنْها؟ قالَ: نَعَمْ حُجِّي عَنْها، أرَأَيْتِ لو كانَ علَى أُمِّكِ دَيْنٌ أكُنْتِ قاضِيَةً؟

اقْضُوا اللهَ، فاللهُ أَحَقُّ بالوَفاءِ.[12] (تعليمه لنا للقياس ممّا يدل أيضا على فهمه ﷺ مقاصد الله -عز وجل- من شرعه)

ولَمَّا بَعَثَ مُعَاذًا رَضِيَ اللهُ عنْه علَى اليَمَنِ، قَالَ: إنَّكَ تَقْدَمُ علَى قَوْمٍ أهْلِ كِتَابٍ، فَلْيَكُنْ أوَّلَ ما تَدْعُوهُمْ إلَيْهِ عِبَادَةُ اللهِ، فَإِذَا عَرَفُوا اللهَ، فأخْبِرْهُمْ أنَّ اللهَ قدْ فَرَضَ عليهم خَمْسَ صَلَوَاتٍ في يَومِهِمْ ولَيْلَتِهِمْ، فَإِذَا فَعَلُوا، فأخْبِرْهُمْ أنَّ اللهَ فَرَضَ عليهم زَكَاةً مِن أمْوَالِهِمْ وتُرَدُّ علَى فُقَرَائِهِمْ، فَإِذَا أطَاعُوا بهَا، فَخُذْ منهمْ وتَوَقَّ كَرَائِمَ أمْوَالِ النَّاسِ.[13] (هذا يدلّ على فهمه نفوس النّاس ومراتب العلوم)

[12] صحيح البخاري
[13] صحيح البخاري

وحادثة أخرى أرويها لكم على لسان أحد صحابة الرسول ﷺ قال: لمَّا قدِمْنا المدينةَ أَصبْنا من ثِمارِها، فاجْتَوَيْناها وأَصابنا بها وَعْكٌ، وكان النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ يَتخبَّرُ عن بَدرٍ، فلمَّا بلَغنا أنَّ المُشرِكينَ قد أَقبَلوا، سار رسولُ الله صلَّى الله عليه وسلَّمَ إلى بَدرٍ، وبَدرٌ بِئْرٌ، فسبَقْنا المُشرِكينَ إليها، فوجَدْنا فيها رجُلَيْنِ منهم، رجُلًا من قُرَيشٍ، ومَوْلًى لعُقْبةَ بنِ أبي مُعَيطٍ، فأمَّا القُرَشيُّ فانفَلَت، وأمَّا مَوْلى عُقْبةَ فأخَذْناه، فجَعَلْنا نقولُ له: كَمِ القومُ؟ فيقولُ: هم والله كثيرٌ عَددُهم، شديدٌ بأْسُهم . فجَعَل المُسلِمونَ إذ قال ذلك ضرَبوه، حتى انتَهَوْا به إلى النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ فقال له: كَمِ القومُ؟ قال: هم والله كثيرٌ عَددُهم، شديدٌ بأْسُهم، فجهَد النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ أنْ يُخبِرَه كم هم؟ فأبى، ثُم إنَّ النَّبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ سأَله:

كم يَخرَونَ منَ الجُزُرِ؟ فقال: عشْرًا كلَّ يومٍ، فقال رسولُ الله صلَّى الله عليه وسلَّمَ: القومُ ألفٌ، كلُّ جَزورٍ لِمئَةٍ وتَبَعِها.[14]

وأخرى، خطَّ لنا رسولُ الله صلَّى الله عليه وسلَّمَ خَطًّا، ثمَّ قال: هذا سبيلُ الله، ثمَّ خَطَّ خُطوطًا عن يمينِه وعن شِمالِه، وقال: هذه سُبُلٌ، على كلِّ سبيلٍ منها شيطانٌ يدعو إليه، وقرأ: {وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ...} [الأنعام: 153] الآيةَ.[15]

وقصة أخرى يرويها ابن عمر -رضي الله عنهما-: كُنَّا عِنْدَ رَسولِ الله صلَّى الله عليه وسلَّم فَقالَ: أخْبِرُونِي بشَجَرَةٍ تُشْبِهُ أوْ: كَالرَّجُلِ المُسْلِمِ لا يَتَحَاتُّ ورَقُهَا، ولَا، ولَا، ولَا، تُؤْتِي أُكْلَهَا كُلَّ حِينٍ، قالَ ابنُ عُمَرَ: فَوَقَعَ في

[14] صحيح دلائل النبوة، الوادعي
[15] رواه أحمد والنسائي

نَفْسِي أَنَّهَا النَّخْلَةُ، ورَأَيْتُ أبَا بَكْرٍ وعُمَرَ لا يَتَكَلَّمَانِ، فَكَرِهْتُ أنْ أتَكَلَّمَ، فَلَمَّا لَمْ يَقولوا شَيئًا، قالَ رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: هي النَّخْلَةُ، فَلَمَّا قُمْنَا قُلتُ لِعُمَرَ: يا أبَتَاهُ، واللهِ لَقَدْ كانَ وقَعَ في نَفْسِي أنَّهَا النَّخْلَةُ، فَقالَ: ما مَنَعَكَ أنْ تَكَلَّمَ؟ قالَ: لَمْ أرَكُمْ تَكَلَّمُونَ، فَكَرِهْتُ أنْ أتَكَلَّمَ أوْ أقُولَ شيئًا، قالَ عُمَرُ: لَأَنْ تَكُونَ قُلْتَهَا، أحَبُّ إلَيَّ مِن كَذَا وكَذَا.[16]

وأخرى، قال رسول الله ﷺ لمعاذ: يا مُعاذُ أتَدْرِي ما حَقُّ اللهِ علَى العِبادِ؟، قالَ: اللهُ ورَسولُهُ أعْلَمُ، قالَ: أنْ يَعْبُدُوهُ ولا يُشْرِكُوا به شيئًا، أتَدْرِي ما حَقُّهُمْ عليه؟، قالَ: اللهُ ورَسولُهُ أعْلَمُ، قالَ: أنْ لا يُعَذِّبَهُمْ.[17]

هذه الأمثلة الأخيرة تدل على فهمه بالتعليم وتنوّع أساليبه.

---

[16] صحيح البخاري
[17] صحيح البخاري

وأتى فتى شابا النبيَّ ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال: يا رسول الله، ائذن لي بالزنا!، فأقبل القوم عليه فزجروه، وقالوا: مه مه، فقال: ادنه، فدنا منه قريبا، قال: فجلس، قال: أتحبه لأمك؟، قال: لا والله، جعلني الله فداك، قال: ولا الناس يحبونه لأمهاتهم، قال: أفتحبه لابنتك؟، قال: لا والله، يا رسول الله جعلني الله فداك، قال: ولا الناس يحبونه لبناتهم، قال: أفتحبه لأختك؟ قال: لا والله، جعلني الله فداك، قال: ولا الناس يحبونه لأخواتهم، قال: أفتحبه لعمتك؟ قال: لا والله، جعلني الله فداك، قال: ولا الناس يحبونه لعماتهم، قال أفتحبه لخالتك؟ قال: لا والله جعلني الله فداك، قال: ولا الناس يحبونه لخالاتهم قال: فوضع يده عليه وقال: اللهَم اغفر ذنبه وطهر قلبه، وحصن فرجه، فلم يكن بعد ذلك الفتى يلتفت إلى شيء.[18]

ومنه قال : نعم الرجل عبد الله لو كان يصلي من الليل ، فكان بعد لا ينام من الليل إلا قليلا ، وظاهره أن قوله " فكان بعد لا ينام.[19]

---

[18] رواه أحمد
[19] صحيح البخاري

وأمّا تضحيتهم بأنفسهم من أجل قومهم وهدايتهم للحق فهذا من أصل خُلقهم ومن أسباب اختيارهم، فقد قال أحدهم -عليه الصلاة والسلام- وقد ضَرَبَهُ قَوْمُهُ فأدْمَوْهُ، وهو يَمْسَحُ الدَّمَ عن وجْهِهِ ويقولُ: اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِقَوْمِي، فإنَّهُمْ لا يَعْلَمُونَ.[20]

وقول النبّي محمد ﷺ لملك الجبال عندما ناداه ملَكُ : فسلَّمَ عليه ، ثمَّ قالَ : يا محمَّدُ : إنَّ اللَّهَ عزَّ وجلَّ قد سمِعَ قولَ قومِكَ لَكَ ، وأَنا ملَكُ الجبالِ ، وقد بعثَني ربُّكَ إليكَ لتأمرَني أمرَكَ ، وبما شئتَ ، إن شئتَ أن أُطْبِقَ عليهِمُ الأخشبَينِ فعلتُ ، فقالَ لَهُ رسولُ اللَّهِ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ : بل أرجو أن يُخْرِجَ اللَّهُ مِن أصلابِهِم مَن يعبدُ اللَّهَ ، لا يشرِكُ بِهِ شيئًا.[21]

هكذا تدركون أنّ من كفر بالأنبياء ولم يتّبعهم، لم يكن ذلك عن تقصير من الأنبياء في تبيين الحقّ لهم، ولا عن فساد الرّسالة كما سيظهر لكم

---

[20] صحيح البخاري
[21] صحيح البخاري

صدقها إن شاء الله. ولكن **كان كفرهم عن كبْرٍ، وتعصّب لقومهم، واتباعهم الهوى والشهوات.**

يقول نوح -عليه السلام- {وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا} [نوح : 7]

وقال تعالى على لسانهم {قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا **كَانَ** يَعْبُدُ **آبَاؤُنَا** ۖ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ} [الأعراف : 70]

وقال تعالى {فَأَمَّا عَادٌ **فَاسْتَكْبَرُوا** فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ۖ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۖ وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ} [فصلت : 15]

وقال تعالى {* وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ (51) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَٰذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ (52) قَالُوا **وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ** (53)} [الأنبياء : 51-53]

وقال تعالى {قَالَ الَّذِينَ **اسْتَكْبَرُوا** إِنَّا بِالَّذِي آمَنتُم بِهِ كَافِرُونَ} [الأعراف : 76]

وقال تعالى {* قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا ۚ قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ} [الأعراف : 88]

وقال تعالى {ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَارُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ بِآيَاتِنَا فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ} [يونس : 75]

وقال تعالى {وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِن بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ ۖ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ ۗ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَىٰ أَنفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ} [البقرة : 87]

وقال تعالى {* وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا ۗ لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا} [الفرقان : 21]
وقال تعالى {فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ} [القصص : 50]

وقال تعالى {وَاللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَن تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا} [النساء : 27]

فإجابة عن سؤالك يا بُني، كيف يضلّ الذكي عن الحقيقة؟ فهي كما ترى، اتباع الهوى، والكِبر، والعصبيّة، واتباع الشهوات.

أمّا الذين يتّبعوهم، فإنّما شُبّهت لهم الحقيقة بالباطل... شُبهات ألقاها السفسطائيون كما سمّاهم سقراط، أي الذين يدّعون الحكمة وليسوا منها، وما هذا إلاّ لينفلتوا من كلّ قيد، ويُبرّروا لأفعالهم ومعتقداتهم الرّذيلة.

آرثر:

هلا ذكرتِ لنا بعض الشُبهات التي ألقاها السّوفسطائيون حتّى أستوعب الأمر، من فضلك يا أمّنا!

الأرض:

نعم...سأذكر لكم شبُهاتهم فيما يخصّ نسبيّة القيم، فهي بابهم المُفضّل والأسهل للفساد في نظرهم، وسأذكر الردّ عليه من كلام العالم ابن القيم الجوزيّة.[22]

"**أحدها**: قولكم: «لو قدَّر الإنسانُ نفسَه وقد خُلِقَ تامَّ الخِلقة، تامَّ العقل، دفعةً [واحدةً]، مِنْ غير تأدُّبٍ بتأديب الأبوين ولا تعلُّمٍ من معلِّم، ثمَّ عُرِض عليه أمران: أحدهما: أنَّ الواحدَ أكثرُ من الاثنين، والآخر: أنَّ الكذبَ قبيح، لم يتوقَّف في الأوَّل، ويتوقَّفُ في الثَّاني» قال ابن القيم: تقديرٌ مستحيل، ركَّبتم عليه غيرَ معلوم الصحَّة؛ فإنَّ تقديرَ الإنسان كذلك محال.

الوجه الثَّاني: سلَّمنا إمكانَ التَّقدير، لكن لِمَ قلتم بأنه لا يتوقَّفُ في كون الواحد نصفَ الاثنين، ويتوقَّفُ في كون الكذب قبيحًا بعد تصوُّر حقيقته؟ فلا نسلِّم أنه إذا تصوَّر ماهيَّةَ الكذب توقَّف في الجزم بقُبْحِه، وهل هذا إلا **دعوى مجرَّدة**؟!

---

[22] مفتاح دار السعادة، ابن القيم

الوجه الثَّالث: سلَّمنا أنه قد يتوقَّفُ في الحكم بقُبْحِه، ولكن لا يلزمُ من ذلك أن لا يكونَ قبيحًا لذاته، وقُبْحُه معلومٌ للعقل، وتوقُّفُ الذِّهن في الحكم العقليّ لا يخرجُه عن كونه عقليًّا، ولا يجبُ التَّساوي في العقليَّات؛ إذ بعضها أجلى من بعض.

فإن قلتم: فهذا التَّوقُّفُ ينفي أن يكونَ الحكمُ بقُبْحِه ضروريًّا، وهو يبْطِلُ قولكم.

قلنا: هذا إنما لَزِم من التقدير المستحيل في الواقع، والمحالُ قد يَلْزَمه محالٌ آخر.

سلَّمنا أنه ينفي كونَ الحكم بقُبْحِه ضروريًّا ابتداءً، **فلِمَ قلتم**: إنه لا يكونُ ضروريًّا بعدَ التأمُّل والنَّظر؟ والضروريُّ أعمُّ من كونه ضروريًّا ابتداءً بلا واسطةٍ أو ضروريًّا بواسطة، ونفيُ الأخصِّ لا يستلزمُ نفيَ الأعمِّ، ومن ادَّعى سَلْبَ الوسائط عن الضروريَّات فقد كابَر، أو اصطَلَحَ مع نفسه على تسمية الضروريَّات بما لا يتوقَّفُ على واسطة!

الوجه الرَّابع: أن تصوُّر ماهيَّة الكذب يقتضي جَزْمَ العقل بقُبْحِه، **ونسبةُ الكذب إلى العقل كنسبة المتنافرات الحِسِّيَّة إلى الحِسِّ**، فكما أنَّ إدراك الحواسِّ المتنافرات يقتضي نُفْرَتها عنها، فكذلك إدراكُ العقل لحقيقة الكذب، ولا فرق بينهما إلا فرقُ ما بين إدراك الحِسِّ وإدراك العقل، **فإن جاز القدحُ في مُدْرَكات العقول وحُكمها فيها بالحُسْن والقُبْح جاز القدحُ في مُدْرَكات الحواسِّ.**

الوجه الخامس: أنكم **فتحتم بابَ السَّفْسَطة**؛ فإنَّ القدحَ في معلومات العقول ومُوجَباتها كالقدح في مُدْرَكات الحواسِّ ومُوجَباتها، فمن لجأ إلى المكابرة في المعقولات فقد فَتَحَ بابَ المكابرة في المحسوسات.
ولهذا كانت السَّفْسَطةُ حالًا تَعْرِض في هذا وهذا، وليست مذهبًا لأمَّةٍ من النَّاس يعيشون عليه كما يظنُّه بعض أهل المقالات، ولا يمكنُ أن تعيش أمَّةٌ ولا أحدٌ على ذلك، ولا تتمُّ له مصلحة، وإنما هي حالٌ عارضةٌ لكثيرٍ من النَّاس، وهي تكثُر وتقلُّ، وما مِنْ صاحب مذهبٍ باطلٍ إلا وهو مرتكبٌ للسَّفْسَطة شاء أم أبى.

الوجه السَّادس: قولكم: «من حكمَ بأنَّ هذين الأمرين سِيَّان بالنسبة إلى عقله خَرَجَ عن قضايا العقول».

جوابه: أنكم إن أردتم بالتَّسوية كونَهما معقولان في الجملة، فمِنْ أين يخرُج عن قضايا العقول من حَكَمَ بذلك؟ وهل الخارجُ في الحقيقة عنها إلا من مَنَعَ هذا الحكم؟

وإن أردتم بالتَّسوية الاستواءَ في الإدراك، وأنَّ كليهما على رتبةٍ واحدةٍ من الضرورة، فلا يلزمُ مِنْ عَدَم هذا الاستواء أن لا يكون العلمُ بقُبْح الكذب عقليًّا.

الوجه السَّابع: قولكم: «لو تقرَّر عند المُثْبِت أنَّ اللهَ تعالى لا يتضرَّر بكذبٍ ولا ينتفعُ بصدقٍ كان الأمران في حُكم التكليف على وتيرةٍ واحدة»

كلامٌ لا يرتضيه عاقل؛ فإنَّ من المتقرِّر أنَّ اللهَ تعالى لا يتضرَّرُ بكذبٍ ولا ينتفعُ بصدق، وإنما يعودُ نفعُ الصِّدق وضررُ الكذب على المكلَّف، ولكن ليتَ شعري مِنْ أين يلزمُ أن يكون هذان الضِّدَّان بالنسبة إلى التكليف على وتيرةٍ واحدة؟ وهل هذا إلا مجرَّدُ تحكُّمٍ ودعوى باطلة؟!

الوجه الثَّامن: أنه لا يَلْزَمُ من كَون الحكيم لا يتضرَّرُ بالقُبْح ولا ينتفعُ بالحُسْن أن لا يحبَّ هذا ولا يبغض هذا، بل تكون نسبتُهما إليه نسبةً واحدة. بل الأمرُ بالعكس، وهو أنَّ حكمتَه تقتضي بُغْضَه للقبيح وإن لم يتضرَّر به، ومحبَّته للحَسَن وإن لم ينتفع به.

وحينئذٍ فيُقْلَبُ هذا الكلامُ عليكم، ونكونُ أسعَد به منكم، فنقول: لو تقرَّر عند النَّافي أنَّ اللهَ تعالى حكيمٌ عليمٌ يضعُ الأشياء مواضعَها، وينْزِلها منازلها، لعَلِمَ أنَّ الأمرين ـ أعني: الصِّدق والكذب ـ بالنسبة إلى شرعه وتكليفه متباينان غايةَ التَّباين، متضادَّان، وأنه يستحيلُ في حكمته التَّسويةُ بينهما، وأن يكونا على وتيرةٍ واحدة، ومعلومٌ أنَّ هذا هو المعقول، وما ذكرتموه خارجٌ عن المعقول.

الوجه التَّاسع: قولكم: «إنَّ الصِّدق والكذبَ على حقيقةٍ ذاتيَّة، وإنَّ الحُسْن والقُبحَ غيرُ داخلَيْن في صفاتهما الذَّاتيَّة، ولا يلزمهما في الوهم بالبديهة ولا في الوجود ضرورةً».

جوابه: أنكم إن أردتم أنَّ الحُسْن والقُبحَ لا يدخُل في مسمَّى الصِّدق والكذب، فمُسَلَّم، ولكن لا يفيدكُم شيئًا؛ فإنَّ غايتَه إنما يدلُّ على تغايُر المفهومَيْن، فكان ماذا؟!

وإن أردتم أنَّ ذاتَ الصِّدق والكذب لا تقتضي الحُسْن والقُبْح ولا تستلزمهما، فهل هذا إلا مجرَّدُ المذهب ونفسُ الدَّعوى؟! وهو مُصَادَرةٌ على المطلوب.

وخصومكم يقولون: إنَّ معنى كونهما ذاتيَّين للصِّدق والكذب: أنَّ ذاتَ الصِّدق والكذب تقتضي الحُسْن والقُبْح، وليس مرادهم أنَّ الحُسْن

والقُبْح صفةٌ داخلةٌ في مسمَّى الصِّدق والكذب، وأنتم لم تُبْطِلوا عليهم هذا.

الوجه العاشر: قولكم: «ولا يلْزمهما في الوهم بالبديهة ولا في الوجود» دعوى مجرَّدة، كيف وقد عُلِمَ بطلانها بالبرهان والضرورة؟!

الوجه الحادي عشر: قولكم: «إنَّ من الأخبار التي هي صادقةٌ ما يلامُ عليه، مثل الدَّلالة على من هَرَبَ من ظالم، ومن الأخبار التي هي كاذبةٌ ما يثابُ عليها، مثل إنكار الدلالة عليه، فلم يدخل كونُ الكذب قبيحًا في حدِّ الكذب، ولا لَزِمه في الوهم ولا في الوجود، ولا يجوز أن يُعَدَّ من الصِّفات الذَّاتية التي تَلْزَمُ النَّفسَ وجودًا وعَدمًا».

جوابه مِنْ وجوه:

أحدها: أنَّا لا نُسَلِّمُ أنَّ الصِّدق يقبُح في حال، ولا أنَّ الكذبَ يحسُن في حالٍ أبدًا، ولا تنقلبُ ذاتُه، وإنما **يحسُن اللَّومُ على الخبر الصَّادق** من حيثُ لم يُعَرِّض المُخْبِرُ ولم يُورِّ بما يقتضي سلامةَ النَّبيِّ أو الوليِّ.

الوجه الثَّاني: أنه أخبَر بما لا يجوز له الإخبارُ به؛ لاستلزامه مفسدةً راجحة، ولا يقتضي هذا كونَ الصِّدق قبيحًا، بل **الإخبار بالصِّدق هو القبيح، وفرقٌ بين النسبة المطابِقة التي هي صدقٌ وبين الإعلام بها، فالقُبح إنما نشَأ من الإعلام لا من النسبة الصَّادقة**، والإعلامُ غيرُ ذاتيٍّ للخبر، ولا داخلٍ في حدِّه، إذ الخبرُ غيرُ الإخبار، ولا يَلْزَمُ من كون الإخبار قبيحًا أن يكون الخبرُ قبيحًا، وهذه الدَّقيقةُ غَفَل عنها الطَّائفتان كلاهما.

الوجه الثالث: أنَّ قُبحَ الصِّدق وحُسْنَ الكذب المذكورَيْن في بعض المواضع لمعارضة مصلحةٍ أو مفسدةٍ راجحة= لا يقتضي عدمَ اتصافِ ذات كلٍّ منهما بحُكمه عقلًا؛ فإنَّ العِلَل العقلية والأوصافَ الذَّاتية المقتضية لأحكامها قد تتخلَّف عنها لِفَوَات شرطٍ أو قيام مانع، ولا يوجبُ ذلك سلبَ اقتضائها لأحكامها عند عدم المانع وقيام الشَّرط، وقد تقدَّم تقريرُ ذلك.

الوجه الثَّاني عشر: قولكم: «إنه لم يبْقَ للمُثْبِتين إلا الاستراحُ إلى عادات النَّاس، مِنْ تسمية ما يضرُّهم قبيحًا، وما ينفعُهم حسنًا» كلامٌ باطل؛

فإنَّ استرواحَهم إلى ما ركَّبه اللهَ تعالى في عقولهم وفِطرهم، وبعَث رسلَه بتقريره وتكميلِه، مِنْ استحسان الحسَن واستقباح القبيح.

الوجه الثَّالث عشر: قولكم: «إنها تختلفُ بعادة قومٍ دون قوم، وزمانٍ دون زمان، ومكانٍ دون مكان، وإضافةٍ دون إضافة».
فقد تقدَّم أنَّ هذا الاختلافَ لا يخرِجُ هذه القبائحَ والمستحسَنات عن كون الحُسْن والقُبْح ناشئًا من ذواتها، وأنَّ الزَّمانَ المعيَّن، والمكانَ المخصوص، والشَّخصَ القابِلَ، والإضافةَ= شروطٌ لهذا الاقتضاء، على حدِّ اقتضاء الأغذية والأدوية والمساكن والملابس آثارَها؛ فإنَّ اختلافها بالأزمنة والأمكنة والأشخاص والإضافات لا يخرجها عن الاقتضاء الذَّاتيّ، ونحن لا نعني بكون الحُسْن والقُبْح ذاتيَّين إلا هذا.
والمشاحَّةُ في الاصطلاحات لا تنفعُ طالبَ الحقِّ، ولا تُجْدِي عليه إلا المُناكَدة والتعنُّت، فكم تُعِيدوا وتُبْدوا في الذَّاتيِّ وغير الذَّاتيِّ! سَمُّوا هذا المعنى بما شئتم، ثمَّ إن أمكنكم إبطالُه فأبطِلوه!

الوجه الخامس عشر: قولكم: «مستندُ الاستحسان والاستقباح التَّدَيُّنُ بالشرائع».

فيقال: لا ريب أنَّ التَّديُّن بالشرائع يقتضي الاستحسانَ والاستقباح، ولكنَّ **الشرائعَ إنما جاءت بتكميل الفِطر وتقريرها، لا بتحويلها وتغييرها**، فما كان في الفطرة مستحسَنًا جاءت الشريعةُ باستحسانه، فكَسَتْهُ حُسْنًا إلى حُسْنه، فصار حسَنًا من الجهتين، وما كان في الفطرة مستقبَحًا جاءت الشريعةُ باستقباحه، فكَسَتْهُ قُبحًا إلى قُبحه، فصار قبيحًا من الجهتين.

وأيضًا، فهذه القضايا مستحسَنةٌ ومستقبَحةٌ عند من لم تبلُغه الدَّعوة، ولم يقرَّ بنبوَّة.

وأيضًا، **فمجيء الرَّسول بالأمر بحسَنها، والنهي عن قبيحها دليلٌ على نبوَّته، وعَلَمٌ على رسالته**، كما قال بعض الصَّحابة وقد سئل عمَّا أوجبَ إسلامَه، فقال: «ما أمَر بشيءٍ فقال العقل: ليته نهى عنه، ولا نهى عن شيءٍ فقال العقل: ليته أمَر به».

فلو كان الحُسْنُ والقُبْح لم يكن مركوزًا في الفِطر والعقول لم يكن ما أمَر به الرسولُ ونهى عنه عَلَمًا من أعلام صِدقه، ومعلومٌ أنَّ شرعَه ودينَه عند الخاصَّة من أكبر أعلام صِدقه وشواهد نبوَّته، كما تقدَّم.

الوجه السَّادس عشر: قولكم في مَثارات الغَلط التي يَغْلَطُ الوهمُ فيها: إنها ثلاثُ مثارات:

الأولى: أنَّ الإنسان يُطْلِقُ اسمَ القبيح على ما يخالفُ غرضَه، وإن كان يوافقُ غرضَ غيره، من حيث إنه لا يلتفتُ إلى الغير، فإنَّ كلَّ طبعٍ مشغوفٌ بنفسه، فيقضي بالقُبح مطلقًا، [فأصاب في أصل الاستقباح]، وأخطأ في إضافة القُبح إلى ذات الشيء، وغَفَل عن كونه قبيحًا لمخالفة غَرَضِه، وأخطأ في حكمه بالقُبح مطلقًا، ومنشؤه عدمُ الالتفات إلى غيره.

فحاصلُه أمران:

أحدهما: أنه إنما قضى بالحُسْن والقُبح لموافقته غَرَضَه ومخالفته.

الثَّاني: أنَّ هذه الموافقة والمخالفة ليست عامَّةً في حقِّ كلِّ شخصٍ وزمانٍ ومكان، بل ولا في جميع أحوال الشَّخص.

هذا حاصلُ ما طوَّلتم به.

فيقال: لا ريب أنَّ الحُسْن يوافقُ الغَرَض، والقُبحَ يخالفه، لكنَّ موافقة هذا ومخالفة هذا هي لِمَا قام بكلِّ واحدٍ من الصِّفات التي أوجبَت الموافقةَ والمخالفة؛ إذ لو كانا سواءً في نفس الأمر وذواتُهما لا تقتضي حُسْنًا ولا قُبحًا لم يختَصَّ أحدُهما بالموافقة والآخرُ بالمخالفة، ولم يكن أحدُهما بما اختَصَّ به أولى من العكس.

فما لجأتم إليه من موافقة الغَرض ومخالفته من أكبر الأدلَّة على أنَّ ذاتَ الفعل متَّصفةٌ بما لأجله وافق الغَرض وخالفه، وهذا كموافقة الغَرض ومخالفته في الطُّعوم والأغذية والرَّوائح؛ فإنَّ ما لاءم منها الإنسانَ ووافقه مخالفٌ بالذَّات والوصف لما نافَره منها وخالفَه، ولم تكن تلك الملاءمةُ والمنافرةُ لمجرَّد العادة، بل لِمَا قام بالمُلائم والمُنافِر من الصِّفات؛ ففي الخبز والماء واللَّحم والفاكهة من الصِّفات التي اقتضت ملاءمتها الإنسانَ ما ليس في التُّراب والحجر والقَصَب والعَصْف وغيرها، ومن ساوى بين الأمرين فقد كابر حِسَّه وعقله.

فهكذا ما لاءم العقولَ والفِطر من الأعمال والأحوال وما خالفها هو لِمَا قام بكلٍّ منها من الصِّفات التي اختصَّت به، فأوجبَ الملاءمةَ والمنافرة؛ فملاءمةُ العدل والإحسان والبِرِّ للعقول والفِطر والحيوان [هي] لِمَا اختصَّت به ذواتُ هذه الأفعال من أمورٍ ليست في الظُّلم والإساءة، وليست هذه الملاءمةُ والمنافَرةُ لمجرَّد العادة والتَّديُّن بالشرائع، بل هي أمورٌ ذاتيةٌ لهذه الأفعال، وهذا مما لا ينكرُه العقلُ بعد تصوُّره.

الوجه السَّابع عشر: أنَّا لا ننكِرُ أنَّ للعادة واختلاف الزَّمان والمكان والإضافة والحال تأثيرًا في الملاءمة والمنافَرة، ولا ننكرُ أنَّ الإنسان يلائمُه ما اعتاده من الأغذية والمساكن والملابس، وينافِرُه ما لم يَعْتَدْه منها وإن

كان أشرفَ منها وأفضل، ومن هذا إلفُ الأوطان، وحبُّ المساكن والحنينُ إليها.

ولكن هل يلزمُ من هذا أن تكون الملاءمةُ والمنافَرةُ كلُّها ترجعُ إلى الإلف والعادة المجرَّدة؟ ومعلومٌ أنَّ هذا مما لا سبيل إليه؛ إذ الحكمُ على فردٍ جزئيّ من أفراد النَّوع لا يقتضي الحكمَ على جميع النَّوع، واستلزامُ الفرد المعيَّن من النَّوع للازمٍ معيَّنٍ لا يقتضي استلزامَ النَّوع له، وثبوتُ خاصَّةٍ معيَّنةٍ للفرد الجزئيّ لا يقتضي ثبوتها للنَّوع الكليّ.

الوجه الثَّامن عشر: أنَّ غاية ما ذكرتم من خطأ الوهم في اعتقاده إضافةَ القُبح إلى ذات الفعل، وحُكمه بالاستقباح مطلقًا، مما قد يَعْرِض في بعض الأفعال، فهل يلزمُ من ذلك أنه حيث قضى بهاتين القضيَّتين يكونُ غالطًا بالنسبة إلى كلِّ فعل؟ ونحن إنما عَلِمنا غلطَه فيما غَلِط فيه لقيام الدَّليل العقليّ على غلطه، فأمَّا إذا كان الدَّليلُ العقليُّ مطابقًا لحكمه فمِن أين لكم الحكمُ بغَلَطِه؟!

فإن قلتم: إذا ثبتَ أنه يغلطُ في حكمٍ ما لم يكن حكمُه مقبولًا؛ إذ لا ثقةَ بحكمه.

قلنا: إذا جوَّزتم أن يكون في الفطرة حاكمان: حاكمُ الوهم، وحاكمُ العقل، ونسبتم حُكمَ العقل إلى حُكم الوهم ، وقلتم في بعض القضايا التي يجزم العقلُ بها: هي مِنْ حُكم الوهم= لم يَبْق لكم وثوقٌ بالقضايا التي يجزم بها العقلُ ويحكمُ بها؛ لاحتمال أن يكونَ مستندُها حُكمَ الوهم لا حُكمَ العقل، فلا بدَّ لكم من التفريق بينهما، ولا بدَّ للتفريق أن تكونَ قضاياه ضروريَّةً ابتداءً وانتهاءً، وإذا جوَّزتم أن يكونَ بعض القضايا الضروريَّة وهميَّةً لم يَبْق لكم طريقٌ إلى التفريق!

الوجه التَّاسع عشر: أنَّ هذا الذي فرضتموه فيمن يستقبِحُ شيئًا لمخالفة غَرضِه ويستحسِنُه لموافقة غَرضِه، أو بالعكس؛ إنما مَوْرِدُه الحِسِّيَّاتُ غالبًا، كالمآكل والملابس والمساكن والمناكح؛ فإنها بحسب الدَّواعي والميول والعوائد والمناسبات، فهو إنما يكونُ في الجزئيَّات وأمَّا الكلِّيَّاتُ العقليةُ فلا يكاد يَعْرِضُ فيها ذلك، فلا يكون العدلُ والصِّدقُ والإحسانُ حَسَنًا عند بعض العقول قبيحًا عند بعضها، كما يكون اللونُ الأسودُ مُشْتَهًى حَسَنًا موافقًا لبعض النَّاس مبغوضًا لبعضهم، ومن اعتَبر هذا بهذا فقد خَرَجَ واعتَبر الشيءَ بما لا يصحُّ اعتبارُه به.

ويؤيِّد هذا الوجه العشرون: أنَّ العقل إذا حكم بقُبح الكذب والظُّلم والفواحش، فإنه لا يختلفُ حكمُه بذلك في حقِّ نفسه ولا غيره، بل يعلمُ أنَّ كلَّ عقلٍ يستقبحُها وإن كان يرتكبُها لحاجته أو جهلِه، فكما أصابَ في استقباحها أصابَ في نسبة القُبح إلى ذاتها، وأصابَ في حُكمه بقُبحها مطلقًا، ومن غلَّطه في بعض هذه الأحكام فهو الغالطُ عليه.

وهذا بخلاف ما إذا حَكَمَ باستحسان مطعمٍ أو ملبسٍ أو مسكنٍ أو لونٍ فإنه يعلمُ أنَّ غيرَه يحكمُ باستحسان غيره، وأن هذا مما يختلفُ باختلاف العوائد والأمم والأشخاص، فلا يحكمُ به حكمًا كلِّيًّا إلا حيث يعلمُ أنه لا يختلف، كما يحكمُ حكمًا كلِّيًّا بأنَّ كلَّ ظمآنٍ يستحسنُ شربَ الماء ما لم يَمْنَع منه مانع، وكلَّ مَقْرورٍ يستحسنُ لباسَ ما فيه دِفؤه ما لم يَمْنَع منه مانع، وكذلك كلُّ جائعٍ يستحسنُ ما يَدْفعُ به سَوْرَة الجوع.

فهذا حكمٌ كلِّيٌّ في هذه الأمور المحسوسة لا غَلَط فيه، مع كون المحسوسات عُرضةً لاختلاف النَّاس في استحسانها واستقباحها بحسب الأغراض والعوائد والإلف، فما الظَّنُّ بالأمور الكلِّيَّة العقليَّة التي لا تختلف، إنما هي نفيٌ وإثبات؟!

الوجه الحادي والعشرون: قولكم: «مِنْ مَثارات الغَلَط: أنَّ ما هو مخالفٌ للغَرَض في جميع الأحوال إلا في حالةٍ نادرة، قد لا يلْتَفِتُ الوهمُ إلى

تلك الحالة النَّادرة، بل لا يخطُر بالبال، فيقضي بالقُبح مطلقًا، لاستيلاء قُبحِه على قلبه، وذهاب الحالة النَّادرة عن ذِكره، لحُكمِه على الكذب بأنه قبيحٌ مطلقًا، وغفلته عن الكذب [الذي] يستفادُ به عصمةُ دم نبيٍّ أو وليٍّ.

وإذا قضى بالقُبح مطلقًا واستمرَّ عليه مدَّةً، وتكرَّر ذلك على سمعه ولسانه، انغَرس في قلبه استقباحٌ منفِّرٌ ... » إلى آخره .

فمضمونه ـ بعد الإطالة ـ أنه لو كان الكذبُ قبيحًا لذاته لما تخلَّف عنه القُبح، ولكنه يتخلَّف إذا تضمَّن عصمةَ دم نبيٍّ أو وليٍّ، ففي هذه الحالة ونحوها لا يكونُ قبيحًا، وهي حالةٌ نادرةٌ لا تكاد تخطُر بالبال، فيقضي العقلُ بقُبح الكذب مطلقًا، ويغفلُ عن هذه الحالة، وهي تنافي حكمَه بقُبحه مطلقًا، ثمَّ يترك ويَنْشَأ على ذلك الاعتقاد، فيَظُنُّ أنَّ قُبحَه لذاته مطلقًا. وليس كذلك.

وهذا ـ بعد تسليمه ـ لا يمنعُ كونَه قبيحًا لذاته وإن تخلَّف القبحُ عنه لمعارضٍ راجح، كما أنَّ الاغتذاء بالميتة والدَّم ولحم الخنزير يوجبُ نباتًا خبيثًا وإن تخلَّف عنه ذلك عند المَخْمَصة.

كيف، وقد بيَّنَّا أنَّ القُبحَ لا يتخلَّف عن الكذب أصلًا، وأمَّا إذا تضمَّن عصمةَ وليٍّ فالحسَنُ إنما هو التَّعريض، والصِّدقُ لا يقبُح أبدًا، وإنما

القبيحُ الإعلامُ به، وفرقٌ بين الخبر والإخبار، فالقُبح إنما وقعَ في الإخبار لا في الخبر.

ولو سلَّمنا ذلك كلَّه؛ فتخلُّف الحُكم العقليّ لقيام مانعٍ أو لفوات شرطٍ غيرُ مستنكَر.

فهذه الشُّبهة مِنْ أضعف الشُّبه، وحَسْبك ضعفًا بحكمٍ إنما يستندُ إليها وإلى أمثالها!

الوجه الثَّاني والعشرون: أنَّ الوهمَ قد سبق إلى العكس، كمن يرى شيئًا مقرونًا بشيءٍ فيَظنُّ الشيءَ لا محالة مقرونًا به مطلقًا، ولا يدري أنَّ الأخصَّ أبدًا مقرونٌ بالأعمِّ، مِنْ غير عكس.

وتمثيلكم ذلك بنُفرة السَّليم من الحبَل المرقَّش، ونفور الطَّبع عن العسل إذا شُبِّه بالعَذِرَة، إلى آخر ما ذكرتم من الأمثال، كنُفرة الطَّبع عن الحسناء ذات الاسم القبيح، ونُفرة الرَّجُل عن البيت الذي فيه الميِّت، ونُفرة كثيرٍ من النَّاس عن الأقوال الصَّحيحة التي تضافُ إلى من يسيئون الظَّنَّ بهم.

فنحن لا ننكرُ أنَّ للوهم تأثيرًا في النُّفوس وفي الحبِّ والبُغض، بل هو غالبٌ على أكثر النُّفوس في كثيرٍ من الأحوال، **ولكن إذا سُلِّط عليه العقلُ الصَّريحُ تبيَّن غلطُه، وأنَّ ما حكَم به إنما هو وهومٌ لا معقول.**

كما إذا سُلِّط العقلُ الصَّريحُ والحِسُّ على الحَبَل المرقَّش تبيَّن أنَّ نُفرة الطَّبع عنه مستندُها الوهمُ الباطل.

وكذلك إذا سُلِّط الذَّوقُ والعقلُ على العسل تبيَّن أنَّ نُفرة الطَّبع عنه مستندُها الوهمُ الكاذب.

وإذا تأمَّل الطَّرفُ محاسنَ الجميلة البديعة الجمال تبيَّن أنَّ نُفرتَه عنها لقُبح اسمها وهمٌ فاسد.

وإذا سُلِّط العقلُ الصَّريحُ على الميِّت تبيَّن أنَّ نُفرة الرَّجل عنه لتَوهُّم حركته وثَوَرانه خيالٌ باطلٌ ووهمٌ فاسد.

وهكذا نظائر ذلك.

أفترى يَلْزَمُ من هذا أنَّا إذا سلَّطنا العقلَ الصَّريحَ على الكذب، والظُّلم، والفواحش، والإساءة إلى النَّاس، وكُفران النِّعم، وضَرْب الوالدين، والمبالغة في إهانتهما وسبِّهما، وأمثال ذلك= تبيَّن أنَّ حُكمَه بقُبحِها وهمٌ منه، ليكون نظيرَ ما ذكرتم من الأمثلة؟!

وهل في الاعتبار أفسدُ من اعتباركم هذا؟!

فإنَّ الحُكمَ فيما ذكرتم قد تبيَّن بالعقل الصَّريح والحِسِّ أنه حكمٌ وهميٌّ، ونحن لا ننازعُ فيه ولا عاقل؛ لأنَّا لمَّا سلَّطنا عليه العقلَ والحِسَّ ظهر أنَّ مستندَه الوهم، وأمَّا في القضايا التي رُكِّبَ في العقول والفِطر حُسْنُها وقُبحها فإنَّا إذا سلَّطنا العقلَ الصَّريحَ عليها لم يحكُم لها بخلاف ما هي عليه أبدًا، إلا أن يَلْجَؤوا إلى دبُّوس الشِّلاق؛

وهو الصِّدقُ المتضمِّنُ هلاكَ ولِيِّ والكذبُ المتضمِّنُ عِصْمَته، وليس معكم ما تصُولون به سواه، وقد بيَّنَّا حقيقةَ الأمر فيه بما فيه كفاية، وحتى لو كان الأمرُ فيهما كما ذكرتم قطعًا لم يجُز أن يُبْطَل بهما ما ركَّبه اللهَ في العقول والفِطر وألزَمها إياه التزامًا لا انفكاك لها عنه، مِنْ استحسان الحسَن، واستقباح القبيح والحكم بقُبحه، والتَّفرِقة العقلية ـ التَّابعة لذواتهما وأوصافهما ـ بينهما.

وقد أنكر اللهَ سبحانه على العقول التي جوَّزت أن يجعل اللهَ فاعلَ القبيح وفاعلَ الحسَن سواءً، ونزَّه نفسَه عن هذا الظَّنِّ وعن نسبة هذا الحكم الباطل إليه، ولولا أنَّ ذلك قبيحٌ عقلًا لما أنكره على العقول التي جوَّزته؛ فإنَّ الإنكار إنما كان يتوجَّه عليهم بمجرَّد الشَّرع والخبر لا بإفساد ما ظنُّوه عقلًا.

ولا يقال: «فلو كان هذا الحكمُ باطلًا قطعًا لما جوَّزه أولئك العقلاء»؛

لأنَّ هذا احتجاجٌ بعقول أهل الشرك الفاسدة التي عابها اللهَ وشَهِدَ عليهم بأنهم لا يعقلون، وشَهِدُوا على أنفسهم بأنهم لو كانوا يسمعون أو يعقلون ما كانوا في أصحاب السَّعير.

وهل يقال: إنَّ استحسانَ عبادة الأصنام بعقولهم، واستحسانَ التَّثليث والسُّجود للقمر وعبادة النَّار وتعظيم الصَّلب، يدلُّ على حُسْنها، لاستحسان بعض العقلاء لها؟!

فإن قيل: فهذا حجَّةٌ عليكم، فإنَّ عقول هؤلاء قد قضت بحُسنها، وهي أقبحُ القبائح.

قيل: ما مثَلنا ومثَلكم في ذلك إلا كمثَل من قال: **إذا كان الأحولُ يرى القمرَ اثنين لم يبْق لنا وثوقٌ برؤية الصحيح العينَين له واحدًا، وإن كان المَحرورُ يجدُ طعمَ الماء العَذب والعسل مُرًّا لم يبْق لنا وثوقٌ بكون صحيح الفم يذوقُه عذبًا وحُلوًا، وإذا كان صاحبُ الفهم السَّقيم يعيبُ القولَ الصَّحيح ويشهدُ ببطلانه لم يبْق لنا وثوقٌ بشهادة صاحب الفهم المستقيم بصحَّته، إلى أمثال ذلك.**

فإذا كانت فطرةُ أمَّةٍ من الأمم وشِرذمةٍ من النَّاس وعقولُهم قد فَسَدَت، فهل يلزمُ من هذا إبطالُ شهادة العقول السَّليمة والفِطر المستقيمة؟!

ولو صحَّ لكم هذا الاعتراض لبَطَل استدلالكم على كلِّ منازع لكم في كلِّ مسألة، فإنه عاقلٌ وقد شَهِد عقلُه بها بخلاف قولكم!

وكفى بهذا فسادًا وبطلانًا، وكفى بردِّ العقول وسائر العقلاء له، والحمدُ لله ربِّ العالمين." اهـ

ضحك الأولاد من الردّ الأخير لابن القيم، ثمّ قال آرثر:

حقا شُبهات خطيرة، عندما أسمعها يُريبني الشكّ، ولكن عندما أسمع الرّد، أقول في نفسي ما أتفه تلك الشبهة

الأرض:

لهذا اسمها شُبهة... ومن الشُبهات أيضا التي حيّرت بعض الناس وضلّتهم عن الحقيقة، ما سأل عنه "كونتوس" معلّمه "منشيوس" قائلا: «يُؤْثر عن كاوتزي قوله: «ليس في طبيعة الإنسان – أصلًا – ما هو طيب أو خبيث» ... ويقول بعض الناس: «من الممكن أن تتسم طبيعة الإنسان

بالخير أو بالشر، على السواء، ومن الممكن توجيهها في هذا الاتجاه أو ذاك، «ومثلًا» فعندما اعتلى العرش «ملوكٌ قدماء، مثل:» الملك «أون»، والإمبراطور «أو»، كانت طبائع الناس تميل إلى الجانب الطيب، أمَّا في عهد الملك «يو» والحاكم «لي» فقد غلب على الناس المرارة والكراهية»، وهناك مَن يقولون: «من الناس مَن يتسمون بالخير عمومًا، ومنهم مَن يوصمون بالخبث والسوء»، وهكذا نجد في عهد حاكم طيب، مثل الملك الحكيم «ياو»، أُناسًا موصوفين بالشر، منهم «مثلًا» شيانغ (أخو الملك)، وعندما كان هناك خبثاء فاسدو الطوية مثل كوصاو (ذلك الأب اللئيم) ظهر رجل فاضل طيب هو الملك شون (الابن الذكي الطيب)، ولمَّا كان هناك حكَّام فاسدون، مثل ولد الطاغية الشهير تشو، الذي تولى العرش «في وقت من الأوقات»، ظهر رجال صالحون طيبون، مثل «وي تزي شي» و«بيكان» (الأعمام الطيبين)، فما بال هؤلاء الذين ذكرتُ لك؟»

فأجاب منشيوس بقوله: «يمكن تطويع الطبع الإنساني لكي يصير خيِّرًا، ذلك هو ما قصدته من أنَّ **الإنسان مجبول على الخير، فإذا كان هناك البعض ممن يحيدون عن النهج الطيب، «فيمكنك أن ترد ذلك إلى أيَّة أسباب»**، لكن ليس من بينها ما يمكن أن يُلقى بالتبِعة فيه على الطبع

الأصيل؛ فالتراحم «إحساس» مشترك بين الجميع، وكذلك الحياء، والتبجيل، والتمييز بين الخطأ والصواب.

فالتراحم من الإنسانية، والحياء من الاستقامة، والتبجيل من التأدب، والتمييز بين الخطأ والصواب من الحكمة. ثم إنَّ **الإنسانية والاستقامة والتأدب والحكمة جميعًا، ليست عوامل خارجية مضافةً للمرء، وإنَّما هي صفات باطنية قائمة في طبيعته**، كل ما في الأمر أنَّ المرء لم يسعَ إلى طلبها بالتأمل الذهني؛ لذلك يُقال بأنَّ: «المرء إذا سعى في طلب «تلك الصفات الجوهرية» فسوف يجدها، أمَّا إذا أهملها فستنأى عنه أبد الآبدين.» ولئن كان حظ الناس منها يتفاوت؛ إذ ينقص ما لدى البعض عمَّا يملكه البعض الآخر والسبب في ذلك يرجع إلى عجزهم عن استنهاض كوامن الطبع في أعماق نفوسهم.

وقد ورد في كتاب الشِّعر القديم «ما نصه»:

«خلقت السماء بني البشر،

ووضعت كل شيء بمعيار،

وقدَّرت القدر،

فَمَن عرف معايير الأشياء ونظامها

أدرك الجمال والروعة

في المسلك الطيب والخُلق القويم.»

وقال "كونفوشيوس": «لقد فهم صاحب تلك الأبيات الواردة في كتاب الشِّعر جوهر الطبيعة الإنسانية؛ إذ أدرك أنَّ لكل شيء نظامًا وقانونًا محددًا، وهو ما يشرح صدور الناس، إذا ما فقهوا تلك النُّظم والقواعد الراسخة، للتأدُّب بالخُلق الجميل».» [23]اهـ

[23] الكتب الأربعة المقدسة

وقال أيضا، منشيوس : «إنَّ التعاطف الإنساني فطرة جُبِل عليها البشر، وقد كان الملوك فيما مضى يمتازون بهذا الحس الإنساني على نحوٍ **استفادوا به في تطوير سياسات حكم الممالك، مما جعل أمورَ الحكم «وتطبيقات» السياسة الداخلية في غاية اليسر والمرونة** (وكأنَّ الحاكم يُدير شئون الحكم بين أصابعه) ولئن كنت أزعم أنَّ الناس جميعًا مفطورون على التعاطف، فدليلي على ذلك أنَّه ما من أحد من البشر رأى طفلًا قد أوشك على السقوط في بئر إلَّا فزعت نفسه وتحرَّكت فيه نوازع التعاطف والرحمة، حتى لو لم يكن من بين مقاصده الوفاء بحق صلة القربى أو صداقة حميمة تربط بين المرء وأهل ذلك الطفل، أو دافع يدفع المرء لنيل حظوة أو تقدير أو ثناء جيرانه وأقاربه، حتى بتأثير ما قد يبعثه بكاء الطفل وصراخه من ضيق أو حرج في نفس عابر سبيل.

بالتعمق في ملاحظة تلك الظاهرة، نجد أنَّ التعاطف طبيعة إنسانية أساسية، تمامًا كالإحساس المرهف، والخجل والتواضع، والإدراك السليم (التمييز الفطري بين الصواب والخطأ).

إنَّ التحلي بروح التعاطف هو أساس الإحسان، والحياء هو رأس الاستقامة؛ والتواضع أول طريق الخُلق القويم، والإدراك السليم مقدمة الحكمة." اهـ

آرثر:

حقا، لولا ردّ منشيوس لكانت الشبهة قد أثّرت في!

الأرض:

انظر الأمر ببساطة، هؤلاء السوفسطائيون يختزلون الإنسان في أمر واحد أو اثنان، سواء كان في الجنس مثل فرويد أو القوة مثل نيتشه أو الاقتصاد مثل ماركس أو في العقل مثل ديكارت أو في الخبرة مثل لوك

وغيرها وليس ككل من عقل وشهوة وأخلاق وغيره. ثمّ إنّهم يعتقدون أوّلا ثم يستدلّون أي يعتقدون أفكارهم مثل النسبية ثمّ يذهبون للبحث عن ما يُدعم مُعتقدهم ولو كان شاذا ويجعلونه هو الأصل، والأصل الذي هو العام يؤوّلونه بما يُوافق مُعتقدهم.

آرثر:

كيف؟

الأرض:

إذا قلت لكم أنّ المرأة لا تُنجب، فهل كلامي صحيح؟

آرثر:

بالتأكيد لا

الأرض:

أقول لكم، أنتم مخطئون، فهناك نساء عقيمات، أليس كذلك؟

آرثر:
بلى، ولكن ليست هي الأصل، بل الأصل أنّ المرأة تنجب، ولكن هناك حالات استثنائية

الأرض:
هكذا فعلت الآنسة سيمون دي بوفوار لنفي غريزة الأمومة

أوليفر:
كيف؟

الأرض:
قلبت الاستثناء وجعلته الأصل، والأصل استثناء... فهي تقول : " **قد يكون تفاني الأم أصليا ولكن ذلك نادر. في العادة تكون الأمومة تواطوا غريبا بين النرجسية والغيرية والحلم والصدق وسوء النية والتفاني والاستخفاف**"[24] وتقول أيضا مع اعترافها أنّها أخذت نماذج استثنائية : "**إذا كانت النماذج الموصوفة في هذه الروايات استثنائية بعض الشيء،**

[24] الجنس الآخر، سيمون دي بوفوار

فذلك لأن معظم النساء يخفين اندفاعاتهن التلقائية بدافع الأخلاق واللياقة؛ لكنهن يفضحن أنفسهن بشكل خاطف من خلال مشاحنات أو صفعات، أو غضب، وشتائم، وعقاب، إلخ."

آرثر:

ما هذه السخافات؟! وكيف تنطلي هذه الحماقات على الناس؟ وهل الأمهات من الحيوانات يضحّين بأنفسهن من أجل ولدهن بدافع الأخلاق واللياقة؟

الأرض:

أحسنت! لكن للأسف قد انطلت على كثير من النساء...أتريدون سماع تأويلها للحمل؟

الأولاد:

بلى

الأرض:

قالت : "وإن كانت المرأة ترغب بالطفل بشدّة، فجسدها يثور أولا عندما يكون عليه أن ينجب. يؤكّد ستيكل في حالات القلق العصبية" أن إقياء المرأة الحامل يُعبِّر دوما عن نوع من رفض الطفل"[25].

أوليفر:
وماذا تقول أو ماذا يقول لها ستيكل هذا عن دورتها الشهرية؟ أهو رفضٌ لوجودها؟

ضحك الجميع

آرثر:
أوليفر يقصف ولا يرحم!

الأرض:
وقالت أيضا مُستشهدة بأمثلة تُدعم رأيها، **" النساء الغنجات، اللواتي يرين في نفسهن في الأساس شيئًا شهوانيا ، اللواتي يحببن في نفسهن جمال جسدهن، يعانين من رؤية تشوه شكلهن، وزوال جمالهن، وعجزهن عن**

[25] الجنس الآخر، سيمون دي بوفوار

إثارة الرغبة. لا يبدو لهنّ الحمل أبدًا عيدًا أو غنى، ولكن تصغيرا لأناهن."

آرثر:
أصبح الأمر واضحا جدا

الأرض:
فهذه هي أساليبهم، أعني السوفسطائيين، منذ القدم. قال سقراط عنهم : "هؤلاء النفعيين الذين يدعوهم الجمهوري سفسطائِيّين، ويحسبونهم مزاحمين في هذا الفن، **لا يعلّمون من العقائد إلا ما يستحسنه العامة في مجتمعاتهم ويسمونه حكمة**، فهم كمن درس طبائع وحش ضار كان يعوله، وخبر ملامحه أبَّان هياجه، وعرف رغباته، وتعلَّم كيف يُدانيه وكيف يلمسه، وفي أي الأحوال والأوقات يكون أكثر خطراً أو أكثر هدوءًا، وفي أي الأحوال يصدر مختلف الأصوات، وأي الأصوات التي تصدر عن الجمهور تثيره أو تهدئه. ولمَّا تعلَّم كل ذلك بملازمة الوحش طويلًا، سمَّى معلوماته هذه «حكمة»، فنظم فنًّا وفتح مدرسة، مع أنه يجهل كل الجهل أي هذه الرغبات والمجون جميل أو قبيح، وأيها صالح وأيها رديء، وأيها عادل وأيها باطل؛ ولذا يكتفي بإطلاق هذه الأسماء

بحسب حالات الوحش، فيدعو ما يسره خيرًا، وما يسوءه شرًّا، وليس عنده مقياس آخر للحكم، إنما يدعو الأشياء عادلة وجميلة، مع أنها صُنعت بحكم الضرورة، فلم يرَ ولا يقدر أن يبين للسوي ما هي طبائع الأشياء الضرورية والصالحة، ودرجات تفاوُتها، فبحقِّ السماء قُل: ألا ترى شخصًا كهذا معلمًا غريب الشك؟"[26].

آرثر:

أنت مُحقّة

الأرض:

بل أظهر سُقراط أنّ الظالم المُدّعي لحكمة الظلم مُحتاج ولابدّ من العدل، ممّا يُبطل قوله بنسبية القيم. قال في حوار له مع ثراسيماخس :

"**س :** إني أكرِّر السؤال الذي قدَّمْتَه سابقًا، فنستأنف البحث فيه، فبماذا تقوم المقابلة بين العدالة والتعدي؟ فقد قيل إن التعدي أقوى من العدالة وأعظم فعلًا، أما الآن وقد رأينا أن العدالة حكمة وفضيلة، والتعدي

[26] الجمهورية، أفلاطون

جهل مُطبق، فبسهولة يثبت أنها أقوى من التعدي، وليس من يجهل ذلك. ولكني لا أختار فصل الخطاب بهذه الصورة الجازمة يا ثراسيماخس، بل أعالج القضية بهذه الصورة، أتُسلِّم أن الدولة المتعدية قد تستعبد غيرها ظلمًا وتنجح في ذلك، فتخضع لها الأمصار؟

ث : دون شك إني أُسلِّم، فإن أفضل الدول — أيْ أكثرها غزوًا — هي أكثر مِن سواها اغتصابًا.

س : فهمت أن هذا مركزك، ولكن المسألة التي نعالجها هي: أتتوطَّد صُولةُ الدولة الغاصبة دون عدالة؟ أم بحكم الضرورة لا غنى لها عن التزام العدالة؟

ث : إذا صحَّ رأيك أن العدالة حكمة، فمن اللازم الحصول على نجدتها. ولكن إذا صحَّ رأيي، فالتعدي هو المستند.

س : ويسرُّني أنك لم تكتفِ بإنغاض الرأس وهزه، بل أراك تجيب بكل وضوح.

ث : وقد فعلتُ ذلك لأسرَّك.

س : فلك عليَّ الفضل والمِنَّة، فسُرَّني أيضًا بالإجابة عما يلي: هل من مدينة أو جيش أو عصابة لصوص أو أية جماعة أخرى وطَّنت النفس على انتهاج منهج التعدي بالتضامُن، أتنجح في مسعى وقد فشا التعدي فيما بين أفرادها؟

ث : مؤكَّد لا.

س : وإذا عرجوا جميعًا عن الشنآن المتبادل، أفليس ميسورًا نجاحهم؟

ث : بلى تأكيدًا.

س : لأن التعدي يا ثراسيماخس يُنشئ انقسامًا وبغضاء بين الإنسان وأخيه، أما العدالة فتوثِّق أواصر الصداقة والوفاء، أليس هذا أثرها؟

ث : ليكن كذلك، لكي لا أنازعك.

س : شكرًا لك يا صديقي الفاضل. فقُلْ لي إذا كان شأن التعدي، أين فشا، خَلَق العصيان والشنآن، أَفَلا يلزم عن ذلك أنه متى شجر النزاع بين الأفراد، أحرارًا كانوا أو عبيدًا، أبغضوا بعضهم بعضًا، فتوترت علاقاتهم وتخاذلوا، فعجزوا عن العمل؟

ث : هكذا الحال بالتأكيد.

س : وفي حال سقوط العدالة بين فردين، أَلَا يدبُّ بينهما دبيبُ الخلاف، فيبغضان أحدهما الآخر، ويبغضان العادلين من الرجال أيضًا؟

ث : يبغضان.

س : أفيفقد التعدي في الفرد الأثر الذي له في الجماعة أم يحتفظ به؟ قل يا ثراسيماخس الحبيب.

ث : نقول إنه يحتفظ به.

س : أفليس ذلك الأثر هو هو أين حلَّ؟ سواء في مدينة، أم في عائلة، أم في جيش، أم في غير ذلك؟ فإن **التعدي يستحيل معه التعاون في العمل، لِما يُنشِئ بين الناس من الشقاق والنزاع، بل إنه يجعل المرء عدو نفسه، وعدو كل إنسان، ولا سيما العادلين،** أليس هكذا؟

ث : مؤكد هكذا."[27] اهـ

وبتلك الشبهات وغيرها فسد من في البرّ والبحر

[27] الجمهورية، أفلاطون

المرأة:

وبسببها وصلتُ إلى ما أنا عليه

أوليفر:

كيف؟ هلا أخبرتنا!

المرأة:

حمل نفي القيم إلى نفي الغرائز البشرية، من أنوثة وأمومة وغيرهما، كما قالت النسوية سيمون دي بوفوار : "**يجب أن نكرر مرة أخرى أن لا شيء طبيعي في المجموعة البشرية وأنّ المرأة نتاج من إعداد الحضارة**؛ تدخل الغير في مصيرها أصلي ولو كان هذا العمل قد تم بشكل مختلف لكانت النتيجة مختلفة تمامًا. **لا يحدّد المرأة هرمونات ولا غريزة غامضة ولكن الطريقة التي تدرك بها، من خلال الشعور الغريب، جسدها وعلاقتها بالعالم**".[28] اهـ

[28] الجنس الآخر، سيمون دي بوفوار

فهي التي قالت كلمتها المشهورة: " **المرأة لا تولد امرأة، بل تُصبح امرأة**"، تعبيرا لنفي الغرائز.

أوليفر:

كيف؟ هذا جنون! سيمون مرة أخرى!... وكأنّ هذا الاسم "النسوية" مألوف عليّ، من هم وما هو فكرهنّ؟

المرأة:

هذه المرأة سيمون دي بوفوار نسوية وُجوديّة، أي خرّيجة الفلسفة الوجودية لجون بول سارتر الذي هو صديقها. وهذا الأخير بنى فلسفته عفوا سفسطته على إنكار الغرائز كليّا، لأنّه أنكر الخالق، فأنكر معنى وجود الخَلْق.

أمّا النسويّة عموما فهي حركة نسائية تسعى إلى تحرير المرأة كما تدّعي ومساواتها بالرجل في الحقوق. وهنّ اتجاهات عدّة.

سألخّص لكم فكرهنّ وفلسفتهن أقصد سفسطتهن من نقطة نفي الغريزة إلى فكرة المرأة المُستقلة في نظرهنّ.

الأولاد:

جيّد

المرأة:

سأعرضه لكم في سبعة مراحل متتابعة، كل مرحلة تؤدي منطقيًا إلى التالية، حتى نفهم "نهجهم" و"كيف وصلوا إلى الفكرة".

المرحلة الأولى: نفي الغريزة أو التشكيك فيها

النسوية، خصوصًا الراديكالية وما بعد البنيوية، ترى أن:

- ما نعتبره "غريزة" ليس طبيعيًا بشكل كامل.
- المجتمع صنع صورة معينة لرغبة المرأة:
  - أنها قليلة الرغبة
  - أنها خجولة
  - أنها لا تطالب بالمتعة
  - أنها تابعة لرغبة الرجل
- إذًا: رغبة المرأة **ليست جوهرًا طبيعيًا**، بل **هوية مُشكّلة اجتماعيًا.**

الفكرة الأساسية:

"المرأة ليست بطبيعتها كما يُقال عنها."

المرحلة الثانية: اعتبار الجسد ساحة السيطرة الأولى

بعد نفي "الطبيعة الأنثوية" الثابتة، ينتقلون للقول:

- المجتمع الأبوي يبدأ بالسيطرة على **جسد المرأة.**
- الجسد يصبح:
  - شرف العائلة
  - أداة ضبط
  - مصدر العار أو الطّهر
  - سبب الزواج المبكر

الفكرة الأساسية:

"الجسد هو مكان القمع، إذًا التحرر يبدأ منه."

المرحلة الثالثة: تفكيك دور الزوجة التقليدية

لأن المجتمع، في نظرهم:

- يحدد موقع المرأة من خلال الجسد والزواج
- يربط قيمتها بالإنجاب والطاعة
- لا يعترف برغبتها أو ذاتها

فهم يقولون:

- دور الزوجة = **دور مفروض**
- رغبتها الجنسية = **مكبوتة**
- حياتها تُعرف من خلال الرجل

الفكرة الأساسية:

"المرأة المتزوجة تقليديًا لا تعيش ذاتها بالكامل، بل تعيش الدور المرسوم لها."

المرحلة الرابعة: التركيز على الرغبة الجنسية كمفتاح الوعي الذاتي

هنا تأتي النقطة عندهن:

لماذا التركيز الهائل على الرغبة الجنسية؟

لأنهنّ يرون أن:

- المرأة التي لا تعرف رغبتها
  لا تستطيع أن تعرف حدودها،
  وبالتالي لا تعرف ذاتها.

- الرغبة هي أهم نقطة أخفاها المجتمع عنها. (ألم تقل لكم أمّنا أنّهم أصحاب شهوات كما قال تعالى عنهم {وَاللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَن تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا} [النساء : 27])

- تعليم المرأة أنّ رغبتها عيب يولّد:

  - الخوف

- الطاعة
- التبعية
- الصمت

الفكرة الأساسية:

"إذا لم تمتلك المرأة جسدها، لن تمتلك أي قرار في حياتها."

المرحلة الخامسة: اكتشاف الرغبة = بداية استقلال الذات

عندما تبدأ المرأة (في تصوّرهن):

- بفهم رغبتها
- معرفة ما تحبه وما ترفضه

- التعبير عن جسدها بلا خوف
- القدرة على قول "لا" و"نعم"

فهذا يعني أنها:

- تعرّفت على ذاتها
- لم تعد خاضعة لما يفرضه الزوج أو المجتمع
- أصبحت "فاعلًا" لا "مفعولًا به"

الفكرة الأساسية:

"امتلاك الجسد = امتلاك الذات."

المرحلة السادسة: "المرأة المستقلة": ليست إباحية، بل صاحبة قرار

النسوية تقول:

المرأة المستقلة ليست بالضرورة:

- منفلتة
- ترفض الزواج
- بلا حدود

بل هي:

- واعية بجسدها
- متحكمة برغبتها
- تملك قرارها
- تحدد شكل العلاقة والزواج بنفسها
- لا تخضع لسلطة الرجل أو المجتمع

الفكرة الأساسية:

"الاستقلال الحقيقي يبدأ حين تتخلص المرأة من الخوف من جسدها."

المرحلة السابعة: النتيجة النهائية — المرأة كذات مستقلة

عندهن:

المرأة التي تعرف جسدها ورغبتها تصبح:

- مسؤولة عن حياتها
- قادرة على الرفض
- قادرة على وضع الحدود
- غير قابلة للاستغلال
- غير خاضعة للزوج أو المجتمع

الفكرة النهائية:

"الجسد ← الوعي ← القوة ← الاستقلال".

الخلاصة النهائية في جملة واحدة

النسوية بنت فكرتها هكذا:

نفي "طبيعة أنثوية ثابتة" ← نقد السيطرة على الجسد ← تحرير الرغبة ← وعي المرأة بذاتها ← استقلال القرار ← الاستقلال التام.

أوليفر:

أشعر أنّ هناك تناقض وعيوب، لكن لا أعرف كيف أفسّرها

المرأة:

بالتأكيد هناك عيوب في هذا النّهج الفكري السّقيم!

سأعطيك **أعمق وأهم العيوب الفلسفية**، وهذه عيوب يعترف بها حتى فلاسفة غربيون غير محافظين.

سأقسمها إلى ثمانية نقاط أساسية:

النقطة الأولى: التناقض بين نفي "الطبيعة" واعتماد "الجسد" كأساس للتحرر

النسوية المتطرفة تقول:

- لا توجد "غريزة" أو طبيعة أنثوية ثابتة
- كل شيء مكتسب اجتماعيًا

ثم تقول:

- المرأة يجب أن تتحرر من خلال **جسدها** ورغبتها

العيب:

إذا لم يكن للجسد دلالة طبيعية أو جوهرية، فكيف يصبح أساس التّحرر؟

إذا كان "مصنوعًا اجتماعيًا"، فكيف يكون هو المفتاح لاستعادة الذات؟

ينفون أهمية الطبيعة ثم يَبْنِين فلسفتهنّ على الطبيعة نفسها.

هذا **تناقض منطقي داخلي.**

النقطة الثانية: اختزال المرأة في الجسد والرغبة

بينما يقصدْن التحرر، ينتهي كثير من الفكر النسوي إلى:

- جعل الجسد مركز الهوية
- الحرية الجنسية أساس كل حرية
- الرغبة محور الذات

العيب:

الإنسان أغنى من أن تُختزل هويته في الرغبة الجنسية:

- العقل
- الإرادة
- القيم
- العلاقات
- الروح
- الأخلاق
- الإبداع
- الطموح

كلها يتم تهميشها لصالح "الجسد".

يتحول التحرر إلى اختزال جديد، لا إلى تحرير حقيقي.

النقطة الثالثة: تجاهل أن الرغبة ليست دائمًا بوابة الحقيقة

يربطون:

معرفة الرغبة = معرفة الذات

لكن:

- الرغبة قد تكون مضطربة
- أو مؤقتة
- أو نتاج تجربة خاطئة
- أو استجابة لصدمة
- أو مكونة اجتماعيًا كما يقلْن هنّ أنفسهنّ

العيب:

إذا كانت الرغبة تتغير وتتأثر بالثقافة، فكيف تكون "جوهر الحقيقة"؟

جعل المتغيّر أساسًا للهوية يؤدي إلى هوية غير مستقرة.

النقطة الرابعة: تجاهل الغريزة البيولوجية التي يؤكدها العلم

علم الأعصاب و"البيولوجيا التطورية" و"علم النفس الجسدي" (لدي تحفظ عن العلمين الأخيرين) كلها تثبت[29]:

---

[29] أولًا: مصادر من علم النفس التطوري (Evolutionary Psychology)

1) David M. Buss

- The Evolution of Desire
- Evolutionary Psychology: The New Science of the Mind

2) Steven Pinker

- The Blank Slate

3) Helen Fisher

- Why We Love
- Anatomy of Love

ثانيًا: مصادر من علم الأعصاب (Neuroscience)

4) Louann Brizendine

- The Female Brain
- The Male Brain

5) Jaak Panksepp

عالِم أعصاب واضع مفهوم *Affective Neuroscience* كتابه:

- Affective Neuroscience: The Foundations of Human and Animal Emotions

ثالثًا: مصادر في الهرمونات والسلوك (Biobehavioral Science)

6) Sheri Johnson & Ian Gotlib

7) Bruce McEwen

8) Oxytocin Research — Sue Carter

رابعًا: مصادر في علم النفس السريري (Clinical Psychology)

9) Jonathan Haidt

- The Happiness Hypothesis

10) Roy F. Baumeister

- وجود دافع جنسي بيولوجي
- وجود فروق بيولوجية بين الرجل والمرأة
- دور الهرمونات في الرغبة، التعلق، القرار

النسوية المتطرفة تنفي كل هذا لأنها ترى أن الاعتراف به = تكريس "الطبيعة الأنثوية".

- Is There Anything Good About Men?

11) Attachment Theory — John Bowlby & Mary Ainsworth

خامسًا: مصادر حول القلق المرتبط بالتحرر الجنسي

هذا مجال جديد نسبيًا، لكنه حاضر في مجلات علمية:

12) Marta Meana

13) Clinical Sexology Journals

العيب:

رفض العلم لإثبات موقف إيديولوجي يؤدي إلى فلسفة غير واقعية وغير تطبيقية.

النقطة الخامسة: الخلط بين "تحرير الجسد" و"تحرير المرأة"

البعض يعتقد أن:

- المرأة إذا اكتشفت جسدها ستصبح حرة
- كأن الجسد مفتاح كل القرارات الأخرى

لكن الواقع:

- ممكن لامرأة أن تكون نشطة جنسيًا لكنها غير مستقلة نفسيًا
- وممكن لامرأة محافظة تمامًا أن تكون قوية ومستقلة في حياتها

- وممكن لامرأة تعرف جسدها جيدًا لكنها تعتمد على رجل عاطفيًا

العيب:

هذا ربط مبالغ فيه بين الجسد والقرار، لا تدعمه التجربة الإنسانية.

النقطة السادسة: تجاهل أن البشر كائنات أخلاقية واجتماعية

الفلسفة النسوية المتطرفة ترى:

- الحرية = رغبة
- التحرر = إزالة القيود
- المجتمع = قيد
- الأخلاق = قمع

لكن الإنسان بطبيعته:

- يبحث عن معنى
- يحتاج للارتباط
- يعيش ضمن جماعة
- يعتمد على قيم
- يوازن بين الرغبة والمسؤولية

العيب:

الفلسفة النسوية لا تعطي نموذجًا مستقرًا للإنسان، بل تصورًا فردانيًا مفرطًا.

النقطة السابعة: استبدال قيد بقيد

بدلًا من:

- "المرأة يجب أن تكون محتشمة"

أصبحت بعضهن تقول:

- "المرأة يجب أن تكون حرة جنسياً"

كلاهما **إلزام**، لكن بنبرة مختلفة.

العيب:

فكرة التحرر تصبح معياراً جديداً للحكم على المرأة.

فتُحاسب المرأة الآن ليس لأنها محافظة... بل لأنها غير حديثة بما يكفي.

هذا شكل آخر من **الضغط الاجتماعي**.

النقطة الثامنة والأخيرة: سوء فهم معنى الحرية

الحرية عند النسوية = **تحرر من أي سلطة (الرجل، المجتمع، الأسرة، الدين).**

لكن الدّيانات والفلسفات الأخلاقية القديمة والحديثة (من سقراط حتى كانط) تقول:

الحرية الحقيقية = القدرة على ضبط النفس لا الانفلات منها.

وحتى علم النفس يقول:

- من يلاحقون الرغبات بلا ضوابط يزدادون قلقًا واكتئابًا
- الرغبة بدون معنى لا تُنتج استقلالًا، بل فراغًا

العيب:

خلط "التحرر" بـ "الانفلات"، بينما الحرية الحقيقية تقوم على الوعي والانضباط.

الخلاصة الكبرى

الفلسفة النسوية التي تمزج بين:

- نفي الغريزة
- التحرر عبر الجسد

- الاستقلال عبر الرغبة

تواجه عيوبًا جوهرية:

1. **تناقض منطقي**
2. **اختزال المرأة**
3. **تجاهل البيولوجيا**
4. **مبالغة في دور الجسد**
5. **تجاهل الأخلاق**
6. **رؤية ناقصة للإنسان**
7. **فلسفة فردانية غير قابلة للتطبيق**

وإن شئتم ذكرتم لكم بعض التفصيل من العيوب النفسيّة والعلمية، أتريدون ذلك؟

الأولاد:

بلى!

المرأة:

لنبدأ.

أولًا: العيوب النفسية

1) تجاهل الفروق النفسية بين الرجل والمرأة

الفكر النسوي الراديكالي يقول:

- "لا توجد فروق نفسية طبيعية بين الجنسين."

لكن علم النفس يؤكد وجود فروق مستقرة مثل:

- أعلى حساسية انفعالية عند النساء

- أعلى معدلات الارتباط العاطفي
- أعلى تأثير للأكسيتوسين عند المرأة (هرمون التعلق)
- اختلاف طرق التعاطي مع الضغط النفسي

العيب:

إنكار الفروق يؤدي إلى مطالب غير واقعية تؤدي إلى صراع داخلي عند النساء.

2) الضغط على المرأة لتكوين "هوية جنسية" بهدف التحرر

عندما تُقال للمرأة رسائل مثل:

- "لا يمكنك معرفة ذاتك إلا إذا اكتشفت رغبتك الجنسية."
- "لا تصبحين مستقلة إلا إذا تحررت جنسيًا."

تتشكل ضغوط نفسية مشابهة لما فرضه المجتمع الأبوي، ولكن بنبرة معاكسة.

النتيجة النفسية:

- شعور بالنقص إذا كانت رغبتها منخفضة طبيعياً
- قلق حول الهوية
- إحساس بأنها "ناقصة" أو "غير متحررة بما فيه الكفاية"
- إحباط عند من لا ترغب أصلاً في التجارب الجنسية

هذه مشكلة معروفة في العلاج النفسي الآن اسمها:
قلق التحرر الجنسي[30].

3) الرغبة الجنسية ليست مركز الهوية كما يدعون

النفس الإنسانية تتكوّن من:

- عقل

[30] Sexual Liberation Anxiety

- أهداف
- ارتباط
- قيم
- عادات
- شخصية
- تاريخ

لكن جعل "الرغبة الجنسية" مركز كل شيء يسبب:

- اضطرابًا في الهوية
- سطحية في فهم الذات
- التركيز على جزء واحد فقط من النفس

- اختزال المرأة في وظيفة واحدة

علم النفس يعتبر هذا **اختزالًا مرضيًا .**

4) تحرير الجسد لا يؤدي بالضرورة إلى الاستقلال

النسوية تفترض:

"إذا تحررت المرأة جنسيًا، ستصبح مستقلة نفسيًا."

لكن علم النفس يقول:

- تجربة الجنس بدون ارتباط مستقر تزيد القلق
- المرأة ترتبط هرمونيًا أسرع بسبب الأوكسيتوسين
- العلاقات السريعة تزيد الاكتئاب عند النساء
- الاستقلال النفسي يحتاج إلى مهارات:

- الثبات الانفعالي
- حدود شخصية
- احترام الذات
- وعي ذاتي

هذه لا تأتي من التجربة الجنسية.

العيب:

جعل الجسد طريقًا للحرية يؤدي إلى نتائج عكسية نفسيًا عند كثير من النساء.

5) تجاهل التعلق العاطفي الطبيعي لدى المرأة

العلم يقول:

- المرأة في الجنس تفرز أوكسيتوسين أكثر من الرجل

- هذا يجعلها تميل للارتباط العميق
- لذلك العلاقات المتعددة تسبب صدمات نفسية للنساء أكثر من الرجال

لكن بعض التيارات النسوية تجعل الجنس "أداة" للتجربة الذاتية.

وهذا ضد البنية النفسية الطبيعية للمرأة.

6) تعزيز الانفصال عن العائلة والعلاقات

الفكر النسوي المتطرف يربط:

- الاستقلال = القطيعة
- التحرر = رفض الزواج
- الهوية = ضد الأسرة

علم النفس يرى أن:

- الدفء العائلي
- العلاقات المستقرة
- الزواج الصحي

هي من أقوى مصادر **الصحة النفسية والرضا الداخلي.**

ثانيًا: العيوب العلمية (بيولوجيا + أعصاب)

1) نفي الغريزة مخالف لعلم الأحياء

الغريزة الجنسية موجودة بيولوجيًا لدى:

- الإنسان
- الثدييات

ولها:

- مسارات دماغية
- هرمونات
- جينات
- محفزات عصبية

النسوية الراديكالية تنفي وجود "غريزة المرأة" وتقول إنها مجرد بناء ثقافي.

لكن هذا ضد:

- علم الهرمونات
- دراسات الرغبة الجنسية
- علم الأعصاب البيولوجي
- علم النفس التطورية (لدي تحفظ منه)

العيب العلمي:

نفي الغريزة = نفي علم كامل.

2) إهمال دور الهرمونات لدى المرأة

البيولوجيا تؤكد:

- الإستروجين
- البروجسترون
- الأوكسيتوسين

لها تأثير مباشر على:

- الرغبة
- التعلق

- المزاج
- القرار
- الاستجابة الانفعالية

الفكر النسوي يختزل كل هذا في "التنشئة المجتمعية".

هذا **خطأ علمي.**

3) العلم يكشف أن الجنس بدون استقرار يضر المرأة أكثر

الدراسات تثبت:

- العلاقات المتعددة تزيد معدلات الاكتئاب لدى النساء
- تقلل الرضا العاطفي
- تزيد العدوانية النفسية
- تؤثر في القدرة على تشكيل علاقات مستقرة لاحقًا

لكن النسوية تقدم الجنس كـ "تحرر وسعادة".

العلم يقول عكس ذلك عند شريحة كبيرة من النساء.

4) تجاهل أن الهوية لا تُبنى من الجسد

الدماغ لا يبني الهوية من:

- الغرائز

بل من:

- القيم
- الخبرات
- العلاقات
- الوعي
- الراحة العاطفية
- المعنى

لذلك جعل الجنس أساس الهوية مخالف **لعلوم الدماغ.**

الخلاصة العلمية والنفسية

الفكر النسوي الذي يقوم على:

- نفي الغريزة
- تحرير الجسد
- جعل الجنس أساس الهوية
- مساواة الاستقلالية بالحريّة الجنسية

يعاني من مشاكل ضخمة:

نفسيًا:

- يسبب قلق الهوية

- يخلق ضغطًا جديدًا على المرأة
- يعزز الارتباط غير الصحي
- يفرّغ الذات من العمق
- لا ينتج استقلالًا حقيقيًا

علميًا:

- يناقض البيولوجيا
- يناقض علم الأعصاب
- يناقض التركيب الهرموني للمرأة

أتدرون لماذا فشل نفي الغرائز علميا؟

الأولاد:

لماذا؟

المرأة:

لأن النسوية **بنت الفكرة على فلسفات، وجودية، ماركسية، ما بعد الحداثة،** وليس على العلم.

أما العلم الفعلي فكان يقول العكس تمامًا:

"هناك طبيعة أنثوية وغريزة مدمجة في الجسم والدماغ."

لم تقتصر العيوب على النفس والعلم، بل سبّبت أزمات داخل الفكر النسوي نفسه. وهذه الأزمات لم يذكرها المخاصمون فقط، بل اعترافات نسويات أنفسهن بوجود تناقضات جوهرية في النظرية.[31]

[31] Camille Paglia (Sexual Personae), Christina Hoff Sommers (Who Stole Feminism?), Barbara Whitehead (The Divorce Culture), Betty Friedan (The Second Stage), Mary Pipher (Reviving Ophelia)...

سأرتبها لك في ستّة أزمات كبرى:

1) أزمة التناقض بين "المرأة لا تُولد امرأة" و"المرأة ضحية لأنها امرأة"

النسوية تستند إلى مقولة سيمون دي بوفوار:

"لا تولد المرأة امرأة، بل تُصبح كذلك."

أي أن المرأة ليست لها طبيعة.

لكن في الوقت نفسه، النسويات يقلن:

"المرأة تُظلم لأنها امرأة."

تناقض:
كيف تُظلم لأنها امرأة إذا لم تكن هناك "امرأة" بالطبيعة أصلًا؟

- إذا لم تكن هناك فطرة ← لا يوجد شيء اسمه "هوية أنثى".

- وإذا لم توجد هوية أنثى ← من هي الضحية إذن؟
- وكيف تُعرّف "الظلم الجندري" من دون جنس؟

هذه أزمة فلسفية أساسية داخل النظرية النسوية نفسها.

2) أزمة "المرأة المتحررة جنسيًا" مقابل "المرأة المتضررة أكثر بعد الجنس"

النسوية الراديكالية تقول:

"التحرر الجنسي يحمي المرأة من الخضوع."

لكن "علم النفس التطوري" يثبت:

- المرأة تتعلق عاطفيًا أكثر بعد الجنس بسبب الأوكسيتوسين
- الميل الطبيعي للمرأة هو الارتباط بعد العلاقة
- تعدد العلاقات يسبب لها أذى نفسيًا أكبر من الرجل

إذن:

ما تدعو إليه النسوية يتعارض مع فطرة المرأة البيولوجية.

النتيجة:

النساء اللواتي تبنين النسوية الجنسية يشتكين لاحقًا من:

- الاكتئاب
- فراغ عاطفي
- عدم القدرة على تكوين علاقة ثابتة
- الشعور بأنهن استُغِلن جنسيًا

وهذا أدى إلى موجة نقد نسوي داخلي ضد "التحرر الجنسي".

3) أزمة الأمومة: "ليست فطرة" ولكن "نريد إجازات أمومة وحقوق أمومية"

النسوية تقول:

"الأمومة بناء اجتماعي وليس غريزة."

لكنها في حقوق المرأة تُطالب بـ:

- إجازة أمومة
- دعم الأم العاملة
- مزايا للحامل
- دعم المرأة في الرضاعة
- حماية الأمومة كدور أساسي

تناقض صارخ:

إذا كانت الأمومة ليست طبيعية، فلماذا تحتاج هذه الحقوق الطبيعية؟

الذريعة:

"المجتمع يفرض الأمومة."

لكن المطالب تعترف ضمنيًا بأن الأمومة **حاجة طبيعية للمرأة ولا يمكن إلغاؤها.**

4) أزمة النوع (الجندر): إلغاء الفروق بين الجنسين أدى إلى محو المرأة نفسها

النسوية الحديثة قالت:

"النوع (الجندر) شيء اختاره الفرد، وليس بيولوجيًا."

يميز الاتجاه الأنجلو - أمريكي في النسوية بين "الجنس" و"النوع"، على اعتبار أن **الجنس مسألة بيولوجية، والنوع (مثل الأنوثة) تصور اجتماعي**، أما التيار النسوى المتأثر بالتحليل النفسى فيذهب إلى القول بأن الجنس والهوية القائمة على النوع مرتبطان ومتداخلان إلى حد كبير. ففى كتابها الجنس والنوع والمجتمع (١٩٧٢) كانت أن أوكلى من أول من قال بأن النوع لا يتوقف على الجوانب البيولوجية؛ **فالجنس ينبع من**

الخصائص التشريحية أما النوع فمكتسب من خلال عملية التأثر والتأثير الثقافي.

أي باختصار "قد يولد الشخص ذكرا بيولوجيا، ولكن يختار أن يكون أنثى. والعكس كذلك".

فماذا حدث؟

- رجال يعرّفون أنفسهم كنساء
- دخولهم في رياضات النساء
- دخولهم أماكن النساء
- منافسة النساء في المنح الدراسية
- استحواذهم على أدوار "المرأة" نفسها

فصرخت النسويات:

"المرأة تُمحى!"

لكن هذا هو بالضبط نتيجة إنكار الفطرة والغريزة والبيولوجيا.

إذا لا توجد طبيعة أنثوية ← أي شخص يمكن أن يكون امرأة.

وهذا يقوّض الحركة النسوية من الداخل.

5) أزمة الجنس نفسه: "الجنس سلطة" ولكن "الجنس يمكن أن يحرر المرأة"

النسوية الراديكالية قالت:

"الجنس علاقة سلطة يستخدم فيها الرجل المرأة."

لكن النسوية الليبرالية قالت:

"الجنس يعطي المرأة سلطة على جسدها."

وهكذا أصبح الجنس:

- مصدر اضطهاد

- ومصدر تحرر
- في الوقت نفسه

تناقض من داخل التيار النسوي نفسه.

النتيجة:

انقسام الحركة النسوية إلى تيارين متصارعين:

- **الراديكاليات :** الجنس قمع
- **الليبراليات :** الجنس حرية

فانهارت وحدة النظرية.

6) أزمة "البناء الاجتماعي": إذا كان كل شيء اجتماعيًا، فلا يمكن للنسوية نفسها أن تكون صحيحة

النسوية قالت:

"الأنوثة بناء اجتماعي."

لكن هذا المبدأ نفسه يؤدي إلى نتيجة خطيرة:

"النظرية النسوية نفسها بناء اجتماعي."

أي أنها ليست حقيقة، بل مجرد خطاب. كما قال ابن القيم في الردّ على السفسطائيين.

وهكذا تصبح:

- مفاهيم القوة
- الظلم
- التحرر
- الذات
- الجسد

كلها مجرد "خطاب لغوي" بلا حقيقة ثابتة.

وهذا يُسقط النظرية النسوية من أساسها، لأنها لم تعد قائمة على حقيقة موضوعية.

الخلاصة الكبرى:

إنكار الفطرة والغريزة أدى إلى أربع نتائج خطيرة داخل النسوية:

1. **تناقضات منطقية**
2. **تناقضات مع العلم**
3. **تناقضات بين التيارات النسوية**
4. **تناقضات مع طبيعة المرأة نفسها**

والسبب بسيط:

الفطرة والغريزة ثابتان بيولوجيًا، والفلسفات التي أنكرت الطبيعة قادت النسوية إلى صراع مع "الواقع نفسه".

أوليفر:

شكرا لك!... أظنّ أنّ هذا الفكر لا يؤثّر على المرأة بالسلب، بل على المُجتمع بأكمله، فهي نصفه الذي به يكمل، أليس كذلك؟

المرأة:

أحسنت!

1) صعوبة تكوين علاقات مستقرة

لأن إنكار الفطرة يخلق توقعًا بأن:

- لا فرق بين الرجال والنساء
- لا أحد يحتاج الآخر

لكن البيولوجيا تقول العكس، فيحدث صدام داخل العلاقات:

- النساء ينتظرن عاطفة أكثر
- الرجال يميلون لطرق تواصل مختلفة
- كلا الطرفين يتهم الآخر بأنه "غير طبيعي"

وهذا يزيد من:

- ضعف الارتباط
- **الخوف من الزواج**
- العلاقات قصيرة الأمد
- **تجنب الارتباط أصلاً**

2) ارتفاع معدلات الوحدة

دراسات عديدة تشير إلى زيادة الوحدة لدى الجنسين، لكن النساء يتأثرن أكثر لأن:

- طبيعة المرأة "علائقيّة"
- إنكار هذه الطبيعة يجعل العلاقات أصعب

الخلاصة

إنكار الفطرة والغريزة أدّى إلى:

- فراغ عاطفي
- صعوبة تكوين علاقات

وأدّى بطبيعته، إلى **انقطاع النسل وانقراض البشرية.** فهو من أكبر الأسباب في معاناة أكثر الدول من الشيخوخة وتهديدهن بالانقراض.

صدق الله العظيم حيث قال {ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ} [الروم : 41]

وقال أيضا {وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ} [طه : 124]

أوليفر:

أتعجّب كيف أنكروا الفطرة والغرائز ومُستمرين على ذلك!

المرأة:

1) لأن وجود فطرة = وجود تصميم = وجود خالق

وهذا يتناقض مع فلسفاتهم الإلحادية، سواء النسوية أو غيرهم من السفسطائيين.

2) لأنهم أرادوا إنقاذ فكرة "الحرية المطلقة"

رأوا أن:

- إذا كانت للإنسان طبيعة

← فهناك حدود

← والحرية المطلقة غير موجودة

فحذفوا الطبيعة ليحافظوا على المطلق.

3) لأنهم أرادوا هدم السلطة القديمة

مثل الكنيسة في مجتمعهم، الدولة، الأسرة.

فقالوا:

"إذا لم توجد فطرة، يمكننا إعادة تشكيل الإنسان من الصفر."

4) لأنهم ظنوا أن العلم سيؤيدهم

لكن العلم عارضهم لاحقًا (علم الجينات، الأعصاب، التطور مع تحفظ للأخير).

كما قالت أمّنا، عن كِبْر وتعصب واتباع هوى وشهوات.

آه كدْتُ أنسى... وصل فكرهنّ السقيم من الجندر إلى ترانسجندر أي التحوّل الجنسي، فمن هو ذَكَرٌ ويُحدّد نفسه على أنّه أنثى (الجندر) فيُمكن له أن يتحوّل جسديّا إلى أنثى من خلال عمليات زرع ثديين وغير ذلك... بل منهم من تحوّل إلى كلب

الأولاد:

ماذا ؟ في أيّ عالم نعيش؟!

المرأة:

والأبشع، أنّهم يبثّون تلك القبائح في المدارس على الأطفال

ضرب الأولاد أكفهم على جبينهم مندهشين ممّا يسمعون.

ثمّ قالت المرأة:

أمّ الأمر الآخر وإن كان أقل قُبحا وقرفا، مع ذلك ضرّني كثيرا، هو ما تفعله النساء اليوم، تُغيّر جسمها بالعمليات التي تُسمّى تجميلا كل مرّة، وكأنّها تُغير فستانا لكلّ مُناسبة أو موضة.

ضحك الأولاد

آرثر:

معذرة يا أمّنا! إذا كان الطيّب والخبيث أمورا مستقرّة فينا كما رأينا، فلماذا يُرسل الله الرّسل؟

الأرض:

أحسنت! سؤال وجيه!... إنّ إِثْباتَ الحُسْنِ وَالقُبْحِ العَقْلِيّينَ لا يَسْتَلْزِمُ الإِسْتِغْناءَ عَنْ الرُّسُلِ، وَلا يَدُلُّ عَلَيْهِ، بَلْ غايَةُ العَقْلِ أَنْ يُدْرِكَ بِالإِجْمالِ حُسْنَ ما أَتَى الشَّرْعُ بِتَفْصِيلِهِ أَوْ قُبْحِهِ، فَيُدْرِكَهُ العَقْلُ جُمْلَةً، وَيَأْتِي الشَّرْعُ بِتَفْصِيلِهِ.

وَهٰذا، كَما أَنَّ العَقْلَ يُدْرِكُ حُسْنَ العَدْلِ، وَأَمّا كَوْنُ هٰذا الفِعْلِ المُعَيَّنِ عَدْلاً أَوْ ظُلْماً، فَهٰذا مِمّا يَعْجَزُ العَقْلُ عَنْ إِدْراكِهِ فِي كُلِّ فِعْلٍ وَعَقْدٍ.

وَكَذٰلِكَ يَعْجَزُ عَنْ إِدْراكِ حُسْنِ كُلِّ فِعْلٍ وَقُبْحِهِ إِلَى أَنْ تَأْتِيَ الشَّرائِعُ بِتَفْصِيلِ ذٰلِكَ وَتَبْيِينِهِ، وَما أَدْرَكَهُ العَقْلُ الصَّرِيحُ مِنْ ذٰلِكَ أَتَتْ الشَّرائِعُ بِتَقْرِيرِهِ، وَما كانَ حَسَناً فِي وَقْتٍ قَبِيحاً فِي وَقْتٍ، وَلَمْ يَهْتَدِ العَقْلُ لِوَقْتِ حُسْنِهِ مِنْ وَقْتِ قُبْحِهِ أَتَتْ الشَّرائِعُ بِالأَمْرِ بِهِ فِي وَقْتِ حُسْنِهِ، وَبِالنَّهْيِ عَنْهُ فِي وَقْتِ قُبْحِهِ.

وَكَذٰلِكَ الفِعْلُ يَكُونُ مُشْتَمِلاً عَلَى مَصْلَحَةٍ وَمَفْسَدَةٍ، وَلا تَعْلَمُ العُقُولُ مَفْسَدَتَهُ أَرْجَحُ أَمْ مَصْلَحَتُهُ؟ فَيَتَوَقَّفُ العَقْلُ فِي ذٰلِكَ، فَتَأْتِي الشَّرائِعُ بِبَيانِ ذٰلِكَ، وَتَأْمُرُ بِراجِحِ المَصْلَحَةِ، وَتَنْهَى عَنْ راجِحِ المَفْسَدَةِ.

وَكَذٰلِكَ الفِعْلُ يَكُونُ مَصْلَحَةً لِشَخْصٍ مَفْسَدَةً لِغَيْرِهِ، وَالعَقْلُ لا يُدْرِكُ ذٰلِكَ، فَتَأْتِي الشَّرائِعُ بِبَيانِهِ، فَتَأْمُرُ بِهِ مَنْ هُوَ مَصْلَحَةٌ لَهُ، وَتَنْهَى عَنْهُ مَنْ هُوَ مَفْسَدَةٌ فِي حَقِّهِ.

وَكَذٰلِكَ الفِعْلُ يَكُونُ مَفْسَدَةً فِي الظَّاهِرِ، وَفِي ضِمْنِهِ مَصْلَحَةٌ عَظِيمَةٌ لا يَهْتَدِي إِلَيْها العَقْلُ، فَلا تُعْلَمُ إِلّا بِالشَّرْعِ."[32]

وهذا لا يَعْنِي أيضا أَنَّ هٰذا التَّفْصِيلَ الَّذِي يَذْكُرُهُ اللهَ -عَزَّ وَجَلَّ- خارِجٌ عَنْ إِقْرارِ العَقْلِ بِحُسْنِهِ، بل هو مثل لغز أو مسألة لم تجد لها حلا، ولكن عند سماعك لحلها تُقرّ به وتستحسنه.

هذا سبب من أسباب الرّسل، وهناك غيرها.

آرثر:

ما هو الدّين الصحيح؟ دين الله؟

ليو:

أظنّه الإسلام، أليس كذلك أمّنا؟

[32] مفتاح دار السعادة، ابن القيم

الأرض:

بلى، كيف عرفت ذلك؟

ليو:

لقد ذكرتِ القرآن قبل قليل، والنبي محمّد

الأرض:

أصبْت

ليو:

معذرة أمّنا! الذي أعرفه أنّ الإسلام قد حرّم أشياء نجد فيها منافع، فكيف يكون هو دين الله؟

الأرض:

اِعْلَمْ أَنَّ الأَعْمالَ إِمّا أَنْ تَشْتَمِلَ عَلَى مَصْلَحَةٍ خالِصَةٍ، أَوْ راجِحَةٍ، وَإِمّا أَنْ تَشْتَمِلَ عَلَى مَفْسَدَةٍ خالِصَةٍ، أَوْ راجِحَةٍ.
فَهٰذِهِ أَقْسامُ أَرْبَعَةٌ تَأْتِي بِها الشَّرائِعُ، فَتَأْتِي بِما مَصْلَحَتُهُ خالِصَةً أَوْ راجِحَةً، آمِرَةً بِهِ مُقْتَضِيَةً لَهُ، وَما مَفْسَدَتُهُ خالِصَةٌ أَوْ راجِحَةٌ، فَحُكْمُها فِيهِ النَّهْيُ عَنْهُ وَطَلَبُ إِعْدامِهِ. فَتَأْتِي بِتَحْصِيلِ المَصْلَحَةِ الخالِصَةِ وَالرَّاجِحَةِ وَتَكْمِيلِهِما بِحَسَبِ الإِمْكانِ، وَتَعْطِيلِ المَفْسَدَةِ الخالِصَةِ أَوْ الرَّاجِحَةِ أَوْ تَقْلِيلِهِما بِحَسَبِ الإِمْكانِ. فَمَدارُ الشَّرائِعِ وَالدِّياناتِ عَلَى هٰذِهِ الأَقْسامِ الأَرْبَعَةِ.
وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعالَى {* يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَـٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ۗ وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ٢١٩}[33]

ليو:
لَٰكِنْ ماذا نَفْعَلُ بِالأَحْكامِ المَنْسُوخَةِ؟ هَلْ كانَتْ خَبِيثَةً، ثُمَّ أَصْبَحَتْ طَيِّبَةً؟ وَبِالعَكْسِ؟

الأرض مبتسمة:
يبدو أنك مطّلع على الدّين الإسلامي جيّدا ؟!

[33] مفتاح دار السعادة، ابن القيم (بتصرف)

ليو:

قد كان لي زميل مسلم... وتكلمنا بعض الشيء عن دينه... لكني انتقلت من الشركة ولم أتواصل معه

الأرض:

صحيح كيف نسيتُ زميلك عمر؟!... حسنا...هٰكَذا أَوامِرُ الرَبِّ -تَبارَكَ وَتَعالَى- وَشَرائِعِهِ سَواءً؛ يَكُونُ الأَمْرُ مَنْشَأَ المَصْلَحَةِ وَنافِعاً لِلمَأْمُورِ فِي وَقْتٍ دُونَ وَقْتٍ، فَيَأْمُرُ بِهِ -تَبارَكَ وَتَعالَى- فِي الوَقْتِ الَّذِي عَلِمَ أَنَّهُ مَصْلَحَةٌ فِيهِ، ثُمَّ يَنْهَى عَنْهُ فِي الوَقْتِ الَّذِي يَكُونُ فِعْلُهُ فِيهِ مَفْسَدَةً، عَلَى نَحْوِ ما يَأْمُرُ الطَّبِيبُ بِالدَّواءِ وَالحِمْيَةِ فِي وَقْتٍ هُوَ مَصْلَحَةٌ لِلمَرِيضِ، وَيَنْهاهُ عَنْهُ فِي الوَقْتِ الَّذِي يَكُونُ تَناوُلُهُ مَفْسَدَةً لَهُ.

بَلْ أَحْكَمُ الحاكِمِينَ، الَّذِي بَهَرَتْ حِكْمَتُهُ العُقُولَ، أَوْلَى بِمُراعاةِ مَصالِحِ عِبادِهِ وَمَفاسِدِهِمْ فِي الأَوْقاتِ وَالأَحْوالِ وَالأَماكِنِ وَالأَشْخاصِ، وَهَلْ وُضِعَتْ الشَّرائِعُ إِلّا عَلَى هٰذا؟!

فَكانَ نِكاحُ الأُخْتِ حَسَناً فِي وَقْتِهِ حَيْثُ لَمْ يَكُنْ بُدٌّ مِنْهُ فِي التَّناسُلِ وَحِفْظِ النَّوْعِ الإِنْسانِيِّ، ثُمَّ صارَ قَبِيحاً لَمَّا اِسْتُغْنِيَ عَنْهُ، فَحَرَّمَهُ عَلَى عِبادِهِ، فَأَباحَهُ فِي وَقْتٍ كانَ فِيهِ حَسَناً، وَحَرَّمَهُ فِي وَقْتٍ صارَ فِيهِ قَبِيحاً.

وَكَذٰلِكَ كُلُّ ما نَسَخَهُ تَعالَى مِنَ الشَّرْعِ، بَلْ الشَّرِيعَةُ الواحِدَةُ كُلُّها لا تَخْرُجُ عَنْ هٰذا، وَإِنْ خُفِيَ وَجْهُ المَصْلَحَةِ وَالمَفْسَدَةِ فِيهِ عَلَى أَكْثَرِ النَّاسِ.
فَكانَتْ كَإِباحَةِ الطَّبِيبِ اللَّحْمَ لِلصَّحِيحِ الَّذِي لا يُخْشَى عَلَيْهِ مِنْ مَضَرَّتِهِ، وَحِمْيَتِهِ مِنْهُ لِلمَرِيضِ المَحْمُومِ.
وَهٰذا الحُكْمُ فِيما شَرَعَ فِي الشَّرِيعَةِ الواحِدَةِ فِي وَقْتٍ، ثُمَّ نُسِخَ فِي وَقْتٍ آخَرَ، كَالتَّخْيِيرِ فِي الصَّوْمِ فِي أَوَّلِ الإِسْلامِ بَيْنَ الإِطْعامِ وَبَيْنَهُ، لَمَّا كانَ غَيْرَ مَأْلُوفٍ لَهُمْ وَلا مُعْتادٍ، وَالطِّباعُ تَأْباهُ، إِذْ هُوَ هَجْرُ مَأْلُوفِها وَمَحْبُوبِها، وَلَمْ تَذُقْ بَعْدُ حَلاوَتَهُ وَعَواقِبَهُ المَحْمُودَةَ وَما فِي طَيِّهِ مِنَ المَصالِحِ وَالمَنافِعِ، وَخُيِّرَتْ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الإِطْعامِ، وَنُدِبَتْ إِلَيْهِ، فَلَمّا عَرَفَتْ عِلَّتَهُ وَأَلِفَتْهُ، وَعَرَفَتْ ما ضِمْنَهُ مِنَ المَصالِحِ وَالفَوائِدِ، حَتَّمَ عَلَيْها عَيْناً، وَلَمْ يَقْبَلْ مِنْها سِواهُ، فَكانَ التَّخْيِيرُ فِي وَقْتِهِ مَصْلَحَةً، وَتَعْيِينُ الصَّوْمِ فِي وَقْتِهِ مَصْلَحَةً، فَاقْتَضَتْ الحِكْمَةُ البالِغَةُ شَرْعَ كُلِّ حُكْمٍ فِي وَقْتِهِ؛ لِأَنَّ المَصْلَحَةَ فِيهِ فِي ذٰلِكَ الوَقْتِ.
وَكَذٰلِكَ فَرَضَ الصَّلاةَ أَوَّلاً رَكْعَتَيْنِ رَكْعَتَيْنِ، لَمّا كانُوا حَدِيثِي عَهْدٍ بِالإِسْلامِ، وَلَمْ يَكُونُوا مُعْتادِينَ لَها، وَلا أَلِفَتْها طِباعُهُمْ وَعُقُولُهُمْ، فُرِضَتْ عَلَيْهِمْ بِوَصْفِ التَّخْفِيفِ، فَلَمّا ذُلِّلَتْ بِها جَوارِحُهُمْ، وَطُوِّعَتْ بِها أَنْفُسُهُمْ، وَاطْمَأَنَّتْ إِلَيْها قُلُوبُهُمْ، وَباشَرَتْ نَعِيمَها وَلَذَّتَها وَطَيِّبَها، وَذاقَتْ حَلاوَةَ

عُبُودِيَّةِ الله فِيها وَلَذَّةِ مُناجاتِهِ، زِيدَتْ ضِعْفَها، وَأُقِرَّتْ فِي السَّفَرِ عَلَى الفَرْضِ الأَوَّلِ؛ لِحاجَةِ المُسافِرِ إِلَى التَّخْفِيفِ، وَلِمَشَقَّةِ السَّفَرِ عَلَيْهِ.

فَتَأَمَّلْ كَيْفَ جاءَ كُلُّ حُكْمٍ فِي وَقْتِهِ مُطابِقاً لِلمَصْلَحَةِ وَالحِكْمَةِ، شاهِداً للهِ بِأَنَّهُ أَحْكَمُ الحاكِمِينَ وَأَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ، الَّذِي بَهَرَتْ حِكْمَتُهُ العُقُولَ وَالأَلْبابَ، وَبَدا عَلَى صَفَحاتِها بِأَنَّ ما خالَفَها هُوَ الباطِلُ، وَأَنَّها هِيَ عَيْنُ المَصْلَحَةِ وَالصَّوابِ.

وَهٰذا الَّذِي ذَكَرْناهُ إِنَّما هُوَ فِي نَسْخِ الحُكْمِ الَّذِي ثَبَتَ شَرْعُهُ وَأَمْرُهُ، وَأَمّا ما كانَ مُسْتَصْحِباً بِالبَراءَةِ الأَصْلِيَّةِ، فَهٰذا لا يَلْزَمُ مِنْ رَفْعِهِ بَقاءُ شَيْءٍ مِنْهُ؛ لِأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ مَصْلَحَةً لَهُمْ، وَإِنَّما أُخِّرَ عَنْهُمْ تَحْرِيمُهُ إِلَى وَقْتٍ لِضَرْبٍ مِنَ المَصْلَحَةِ فِي تَأْخِيرِ التَّحْرِيمِ، وَلَمْ يَلْزَمْ مِنْ ذٰلِكَ أَنْ يَكُونَ مَصْلَحَةً حِينَ فِعْلِهِمْ إِيّاهُ.

وَهٰذا كَتَحْرِيمِ الرِّبا وَالمُسْكِرِ وَغَيْرِ ذٰلِكَ مِنَ المُحَرَّماتِ الَّتِي كانُوا يَفْعَلُونَها اِسْتِصْحاباً لِعَدَمِ التَّحْرِيمِ؛ فَإِنَّها لَمْ تَكُنْ مَصْلَحَةً فِي وَقْتٍ، وَلِهٰذا لَمْ يَشْرَعْها اللهُ تَعالَى، وَلِهٰذا كانَ رَفْعُها بِالخِطابِ لا يُسَمَّى نَسْخاً، إِذْ لَوْ كانَ ذٰلِكَ نَسْخاً لَكانَتْ الشَّرِيعَةُ كُلُّها نَسْخاً، وَإِنَّما النَّسْخُ رَفْعُ الحُكْمِ الثَّابِتِ بِالخِطابِ، لا رَفْعُ مُوجِبُ الاِسْتِصْحابِ، وَهٰذا مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ.[34]

[34] مفتاح دار السعادة، ابن القيم (بتصرف)

ليو مُندهشا:

ما كُنت أتصوّر الدّين ولا الإله هكذا؟ حقا مُدهش!

الأرض:

نَعَمْ، وَأَزِيدُكَ زِيادَةً، وَهُوَ سِرٌّ بَدِيعٌ مِنْ أَسْرارِ الخَلْقِ وَالأَمْرِ، بِهِ يَتَبَيَّنُ لَكَ حَقِيقَةُ الأَمْرِ وَهُوَ أَنَّ اللهَ لَمْ يَخْلُقْ شَيْئاً، وَلَمْ يَأْمُرْ بِشَيْءٍ، ثُمَّ أَبْطَلَهُ وَأَعْدَمَهُ بِالكُلِّيَّةِ، بَلْ لا بُدَّ أَنْ يُثْبِتَهُ بِوَجْهٍ ما؛ لِأَنَّهُ إِنَّما خَلَقَهُ لِحِكْمَةٍ لَهُ فِي خَلْقِهِ، وَكَذٰلِكَ أَمْرُهُ بِهِ، وَشَرْعُهُ إِيّاهُ، هُوَ لِما فِيهِ مِنَ المَصْلَحَةِ.

وَمَعْلُومٌ أَنَّ تِلْكَ المَصْلَحَةَ وَالحِكْمَةَ تَقْتَضِي إِبْقاءَهُ، فَإِذا عارَضَ تِلْكَ المَصْلَحَةَ مَصْلَحَةٌ أُخْرَى أَعْظَمَ مِنْها، كانَ ما اِشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَوْلَى بِالخَلْقِ وَالأَمْرِ، وَيُبْقِي فِي الأُولَى ما شاءَ مِنَ الوَجْهِ الَّذِي يَتَضَمَّنُ المَصْلَحَةَ، وَيَكُونُ هٰذا مِنْ بابِ تَزاحُمِ المَصالِحِ، وَالقاعِدَةُ فِيها شَرْعاً وَخَلْقاً تَحْصِيلُها وَاِجْتِماعُها بِحَسَبِ الإِمْكانِ، فَإِنْ تَعَذَّرَ قُدِّمَتْ المَصْلَحَةُ العُظْمَى وَإِنْ فاتَتْ الصُغْرَى.

وَإِذا تَأَمَّلْتَ الشَّرِيعَةَ وَالخَلْقَ، رَأَيْتَ ذٰلِكَ ظاهِراً، وَهٰذا سِرٌّ قَلَّ مَنْ تَفَطَّنَ لَهُ مِنَ النَّاسِ.

فَتَأَمَلْ الأَحْكامَ المَنْسُوخَةَ حُكْماً حُكْماً، كَيْفَ تَجِدُ المَنْسُوخَ لَمْ يَبْطُلْ بِالكُلِّيَّةِ، بَلْ لَهُ بَقاءٌ بِوَجْهٍ:

فَمِنْ ذٰلِكَ: نَسْخُ القِبْلَةِ وَبَقاءُ بَيْتِ المَقْدَسِ مُعَظَّماً مُحْتَرَماً، تُشَدُّ إِلَيْهِ الرِّحالُ، وَيُقْصَدُ بِالسَّفَرِ إِلَيْهِ، وَحَطُّ الأَوْزارِ عِنْدَهُ، وَاسْتِقْبالُهُ مَعَ غَيْرِهِ مِنَ الجِهاتِ فِي السَّفَرِ، فَلَمْ يَبْطُلْ تَعْظِيمُهُ وَاحْتِرامُهُ بِالكُلِّيَّةِ، وَإِنْ بَطُلَ خُصُوصُ اسْتِقْبالِهِ بِالصَّلَواتِ، فَالقَصْدُ إِلَيْهِ لِيُصَلَّى فِيهِ باقٍ، وَهُوَ نَوْعٌ مِنْ تَعْظِيمِهِ وَتَشْرِيفِهِ بِالصَّلاةِ فِيهِ، وَالتَّوَجُّهُ إِلَيْهِ قَصْداً لِفَضِيلَتِهِ وَشَرَفِهِ لَهُ نِسْبَةٌ مِنَ التَّوَجُّهِ إِلَيْهِ بِالاسْتِقْبالِ فِي الصَّلَواتِ.

فَقُدِّمَ البَيْتُ الحَرامِ عَلَيْهِ فِي الاسْتِقْبالِ؛ لِأَنَّ مَصْلَحَتَهُ أَعْظَمُ وَأَكْمَلُ، وَبَقِيَ قَصْدُهُ وَشَدُّ الرِّحالِ إِلَيْهِ وَالصَّلاةُ فِيهِ مَنْشَأً لِلمَصْلَحَةِ؛ فَتَمَّتْ لِلأُمَّةِ المُحَمَّدِيَّةِ المَصْلَحَتانِ المُتَعَلِّقَتانِ بِهٰذَيْنِ البَيْتَيْنِ، وَهٰذا نِهايَةُ ما يَكُونُ مِنَ اللُّطْفِ وَتَحْصِيلِ المَصالِحِ وَتَكْمِيلِها لَهُمْ؛ فَتَأَمَّلْ هٰذا المَوْضِعَ.

وَمِنْ ذٰلِكَ: نَسْخُ التَّخْيِيرِ فِي الصَّوْمِ بِتَعْيِينِهِ؛ فَإِنَّ لَهُ بَقاءً وَبَياناً ظاهِراً، وَهُوَ أَنَّ الرَجُلَ كانَ إِذا أَرادَ أَفْطَرَ وَتَصَدَّقَ، فَحَصَلَتْ لَهُ مَصْلَحَةُ الصَدَقَةِ دُونَ مَصْلَحَةِ الصَّوْمِ، وَإِنْ شاءَ صامَ وَلَمْ يَفْدِ، فَحَصَلَتْ لَهُ مَصْلَحَةُ الصَّوْمِ دُونَ الصَّدَقَةِ، فَحَتَّمَ الصَّوْمَ عَلَى المُكَلَّفِ؛ لِأَنَّ مَصْلَحَتَهُ أَتَمُّ وَأَكْمَلُ مِنْ مَصْلَحَةِ الفِدْيَةِ، وَنَدَبَ إِلَى الصَّدَقَةِ فِي شَهْرِ رَمَضانَ؛ فَإِذا صامَ وَتَصَدَّقَ حَصَلَتْ لَهُ المَصْلَحَتانِ مَعاً، وَهٰذا أَكْمَلُ ما يَكُونُ مِنَ الصَّوْمِ، وَهُوَ الَّذِي كانَ يَفْعَلُهُ النَّبِيُّ ﷺ، فَإِنَّهُ كانَ أَجْوَدَ ما يَكُونُ فِي رَمَضانَ، فَلَمْ تُبْطَلْ المَصْلَحَةُ

الأُولَى جُمْلَةً، بَلْ قَدَّمَ عَلَيْها ما هُوَ أَكْمَلُ مِنْها وُجُوباً، وَشَرَعَ الجَمْعَ بَيْنَها وَبَيْنَ الأُخْرَى نَدْباً وَاِسْتِحْباباً.[35]

والأمثلة في ذلك كثيرة.

ليو:

يا للكِ من أمّ عظيمة... أنتِ لا تحتوي كُنوزا مادية فقط، بل كنوزا من العلم والمعرفة، شكرا لك!

الأرض:

هذا من حسن أخلاقك يا بني... وإنما الفضل يرجع إلى الله سبحانه وتعالى، فما أخبرتكم به ما هو إلا عن عظمة وحكمة الله -عز وجل- ورحمته وعدله. فالأولى بالتعظيم هو خالق هذا النظام الحكيم لا مُكتشِفه.

أوليفر:

أُمّنا الأرض!... هل تسمحين بأن أسألك، كيف حقّق دين اللهِ العدل بخصوص المرأة، وأيضا بخصوص الكون؟ فكما قلتِ لنا أنّ ما أصابك هو بُعدنا عن الدّين، فكيف يُحقّق الدّين العدل؟

---

[35] مفتاح دار السعادة، ابن القيم (بتصرف)

الأرض (تبتسم بهدوء، تنظر نحو النافذة، صوتها يشبه نسيما دافئا):
تأمَّل العِبرة في وَضع هذا العالَم، وتأليف أجزائه، ونَظْمِها على أحسن نظامٍ وأدلِّه على كمال قدرة خالقه، وكمال علمه، وكمال حكمته، وكمال لُطفه.

فإنَّك إذا تأمَّلتَ العالم وجدتَه كالبيت المبنيِّ المُعَدِّ فيه جميعُ آلاته ومصالحه وكلُّ ما يحتاجُ إليه؛ فالسَّماءُ سقفُه المرفوعُ عليه، والأرض مِهادٌ وبساطٌ وفِراشٌ ومستقَرٌّ للسَّاكن، والشمسُ والقمرُ سراجان يُزْهِران فيه، والنُّجومُ مصابيحُ له وزينةٌ وأدلَّةٌ للمتنقِّل في طرق هذه الدَّار، والجواهرُ والمعادنُ مخزونةٌ فيه كالذخائر والحواصِل المُعَدَّة المهيَّأة كلُّ شيءٍ منها لشأنه الذي يصلُح له، وضروبُ النَّبات مهيَّأةٌ لمآربه، وصنوفُ الحيوان مصرَّفةٌ في مصالحه؛ فمنها الرَّكُوب، ومنها الحَلُوب، ومنها الغذاء، ومنها الدَّواءُ، ومنها اللباسُ والأمتعةُ والآلات، ومنها الحرَسُ الذي وُكِّل بحَرْسِ الإنسان؛ يحرُسه وهو نائمٌ وقاعدٌ مما هو مستعدٌّ لإهلاكه وأذاه، فلولا ما سُلِّط عليه من ضدِّه لم يستقرَّ للإنسان قرارٌ بينهم، وجعَل الإنسانَ كالملِك المخوَّل في ذلك المحكَّم فيه، المتصرِّف بفعله وأمره.

أليس في هذا أعظمُ دلالةٍ وأوضحُها على أنَّ العالم مخلوقٌ من خالقٍ حكيمٍ قديرٍ عليم، قدَّره أحسنَ تقدير، ونظَّمه أحسنَ نظام، وأنَّ الخالقَ له

يستحيلُ أن يكون اثنين؟ بل إلهٌ واحد، لا إله إلا هو، تعالى عمَّا يقولُ الظَّالمون والجاحدون عُلوًّا كبيرًا، وأنه لو كان في السَّموات والأرض إلهٌ غيرُ الله لفسَد أمرُهما، واختلَّ نظامُهما، وتعطَّلت مصالحهما.

وإذا كان البدنُ يستحيلُ أن يكون المدبِّرَ له رُوحان متكافئان متساويان، ولو كان كذلك لفسَد وهلَك، مع إمكان أن يكونا تحت قَهْرِ ثالث؛ فكيف يمكنُ أن يكون المدبِّر لهذا العالم العُلويِّ والسُّفليِّ إلهين متكافئين متساويين ليسا تحت قَهْرِ ثالث ؟!

هذا من المُحال في أوائل العقول وبَدائه الفِطر، ف {لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ} [الأنبياء: ٢٢]، {مَا اتَّخَذَ اللهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذًا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللهِ عَمَّا يَصِفُونَ (٩١) عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ} [المؤمنون: ٩١ - ٩٢].[36]

(ثمّ التفتتْ إلى الأولاد)

فالعالم كما ترون مرتبط بعضه ببعض، لو اختلّ منه شيءٌ، أثّرَ على الباقي.

وأظنّكم لاحظتم أنّ سلوكنا مرتبط بأفكارنا، مثل فكر النسوية وسلوكهم من الجندر، ثم أصل هذا الفكر من فكر الإلحاد ونسبيّة الأخلاق ونفي الغرائز... أليس كذلك؟

---

[36] مفتاح دار السعادة، ابن القيم

الأولاد:

بلى

الأرض:

وأيضا مرتبط بالمجتمع، فقد يسبب في انقراضه. وهكذا كثير من التصرفات البشرية، إما تضرهم في أنفسهم أو في المجتمع، أو في الطبيعة، أليس كذلك؟

الأولاد:

بلى

الأرض:

إذاً، كلّ شيء مرتبط بعضه ببعض، إما مباشرة أو غير مباشرة. فسوء تصرّف من جهة قد يضرّ في الباقي، وكبر الضرر وصغره على حسب ذلك التصرف. أليس كذلك؟

الأولاد:

بلى

الأرض:
جيد...فالدّين الصحيح الذي هو من عند الله -عز وجل-، لا يكون إلا كاملا، عالما بهذا الخلْق ونظامه وترابطه، وإلا لا هو من عند الخالق ولا هو يحقّق العدل.

الأولاد:
صحيح... لو كان الدّين مطابقا للخلق ولنظام الحياة، علمنا حينها أنّه من عند الخالق

الأرض:
لنبدأ أو بالأحرى لنواصل الحديث عن الفطرة الإنسانية ونظام النّفس، فهي أقرب شيء للإنسان، بل الإنسان إنسانٌ بروحه، فهي **مادة حياته**، المدرِكةُ لمدارك الحواسّ بواسطة البدن. فالنفسُ هي الحاسة المدركة، وإن لم تكن محسوسة، والأجسام والأعراض محسوسة. وهي القابلة لأعراضها المتعاقبةِ عليها من الفضائل والرذائل. وهي المتحركة باختيارها، المحرِّكة للبدن قسرًا وقهرًا. وهي مؤثرة في البدن، متأثرةٌ به، تألمُ وتلَذُّ،

وتفرح وتحزن، وترضى وتغضب، وتنعَم وتبأس، وتحب وتكره، وتَذكرُ وتنسى، وتصعد وتنزل، وتعرِفُ وتُنكر. فآثارها من أدلِّ الدلائل على وجودها، كما أن آثار الخالق سبحانه دالةٌ على وجوده وعلى كماله؛ فإن دلالة الأثر على مؤثره ضرورية.[37]

تأمّلوا كيف أثبتَ الله تعالى، من رحمته وحكمته، أثبت فيها حُسْنَ العدل، والإنصاف، والصِّدق، والبِرّ، والإحسان، والوفاء بالعهد، والنَّصيحة للخلق، ورحمة المسكين، ونصرة المظلوم، ومواساة أهل الحاجةِ والفاقة، وأداء الأمانات، ومقابلة الإحسان بالإحسان والإساءة بالعفو والصَّفح، والصَّبر في مواطن الصَّبر، والبذل في مواطن البذل، والانتقام في موضع الانتقام، والحِلْم في موضع الحِلْم، والسَّكينة، والوقار، والرَّأفة، والرِّفق، والتَّودُّد في حُسْن الأخلاق، وجميل المعاشرة مع الأقارب والأباعد، وسَتْر العورات، وإقالة العثرات، والإيثار عند الحاجات، وإغاثة اللهَفات، وتفريج الكربات، والتَّعاون على أنواع الخير والبرّ، والشَّجاعة، والسَّماحة، والبصيرة، والثَّبات، والعزيمة، والقوَّة في الحقِّ، واللين لأهله، والشِّدَّة على أهل الباطل، والغلظة عليهم، والإصلاح بين النَّاس، والسَّعي في إصلاح ذات البَيْن، وتعظيم من يستحقُّ التعظيم، وإهانة من يستحقُّ

[37] الروح، ابن القيم (بتصرف)

الإهانة، وتنزيل النَّاس منازلهم، وإعطاء كلِّ ذي حقٍّ حقَّه، وأخذِ ما سَهُل عليهم وطوَّعت به أنفسُهم من الأعمال والأموال والأخلاق، وإرشاد ضالِّهم، وتعليم جاهلهم، واحتمال جَفْوتهم، واستواء قريبهم وبعيدهم في الحقِّ؛ فأقربهم إليه أولاهم بالحقِّ وإن كان بعيدًا، وأبعدُهم عنه أبعدُهم من الحقِّ وإن كان حبيبًا قريبًا.

إلى غير ذلك مِنْ معرفة العدل الذي وضعه بينهم في المعاملات والمناكحات والجنايات، وما أودع في فِطرهم مِنْ حُسْن شكره وعبادته وحده لا شريك له، وأنَّ نِعَمه عليهم توجبُ بذل قدرتهم وطاقتهم في شكره والتقرُّب إليه وإيثاره على ما سواه، وأثبت في الفِطر عِلْمَها بقبح أضداد ذلك.

ثمَّ بعث رسله في الأمر بما أثبت في الفِطر حُسْنَه وكماله، والنَّهي عمَّا أثبت فيها قبحَه وعيبه وذمَّه.

فطابقت الشريعةُ المنزَّلةُ للفطرة المكمِّلة مطابقةَ التفصيل لجملته، وقامت شواهدُ دينه في الفطرة تنادي للإيمان: حيَّ على الفلاح!، وصدَّعت تلك الشواهدُ والآياتُ دياجي ظُلَم الإباء كما صدَّع الليلَ ضوءُ الصَّباح، وقَبِل حاكمُ الشريعة شهادةَ العقل والفطرة لمَّا كان الشاهدُ غير متَّهمٍ ولا معرَّضٍ للجِرَاح.[38]

---

[38] مفتاح دار السعادة، ابن القيم

فقال تعالى آمرا بالعدل والإنصاف ولو على نفسه، {* يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ ۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ۖ فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَن تَعْدِلُوا ۚ وَإِن تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا} [النساء : 135]

وقال {وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ ۖ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ ۖ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۖ وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۖ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ}

[الأنعام : 152]

وقال {قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ ۖ } [الأعراف : 29]

وقال {* إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ} [النحل : 90]

وأمر بالصدق فقال {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ} [التوبة : 119]

وقال {قَالَ اللهُ هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ ۚ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ۚ رَّضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ} [المائدة : 119]

وحثّ على البرّ وهو جميع الخير، فقال تعالى {وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ ۚ وَاتَّقُوا اللهَ ۖ إِنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ} [المائدة : 2]

وبيّن منزلتهم فقال {إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ} [المطففين : 22]

ودعا إلى الإحسان فقال تعالى {* إِنَّ اللهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ} [النحل : 90]

وقال تعالى {وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا} [البقرة : 83]

هل لاحظتم الترتيب الذي ذكره الله -عز وجل- لمن يُحسن إليهم؟

آرثر:

بدأ بالوالدين والأقارب

الأرض:

نعم...فمكانة الوالدين ليست كغيرها، والأخ ليس كالزّميل، ولا القريب كالبعيد، فمن سوّى بينهم فقد خالف العقل وبَخس حقّهم.

وكيف يُسوّى بينهم ؟! بل كيف لا يُبِرّ المرء والديه ولا يُحسن إليهما؟!...

وهل يُوجد في هذه الدنيا من يُحبّه حبا شديدا لا شرط فيه مثل أمّه وأبيه؟...هل يُوجد من يُضحّي براحته وحياته وشهواته وملذاته من أجلك، غير أمّك وأبيك؟... لا تطيبُ لهما عيش وهما يعلمان بشدّة

حالك... هما الوحيدان بحق اللذان لو أُختِيرا بين حياتهما وحياتك، لاختارا حياتك دون تردّد... فلا سهِرت الأمّ، ولا اشتغل الأب، إلا لراحتك... ولا حرماك من شيء إلا لمصلحتك... وما أعطياك من شيء إلا لمسرتك... وما عاقباك إلا لتربيتك... ومع هذا الحبّ اللامشروط، فليس هناك أبهج لقلوبهما من لقائهما بك، وجلوسهما معك، وسماعهما لحديثك... وليس هناك ما يقِرّ عيونهما أكثر من رؤيتك ابنا صالحا فاضلا سعيدا مُوفّقا في حياته.

(طأطأ الأولاد رؤسهم، ثمّ اِلتفتَتْ الأرضُ نحو النّافذة وقالت ناظرتاً إلى السماء)

بل من رحمة الله بك أيّها المرء، قد خَلَقك وأنت رضيع لا تعقل شيئا، وجعل في والديك هذه الغريزة، رأفةً ومحبة لك...
فقل لي بالله عليك، أنت أيُّها المُلحد، وأنتِ أيَّتُها النَّسوِيّة... من الذي دَبَّرك بألطف التَّدبير، وأنت جنينٌ في بطن أمِّك، في موضعٍ لا يدٌ تنالُك، ولا بصرٌ يُدْرِكُك، ولا حيلةٌ لك في التماس الغذاء ولا في دفع الضَّر؟!

ومن الذي أجرى إليك من دم الأمِّ ما يَغْذُوك كما يَغْذو الماءُ النَّباتَ، وقَلَبَ ذلك الدَّمَ لبنًا، ولم يزل يُغذِّيك به في أَضْيق المواضع وأبعدها من حيلة التكسُّب والطَّلب؟!

حتى إذا كَمُلَ خَلقُك واستحكم، وقَوِي أديمُك على مباشرة الهواء، وبصرُك على ملاقاة الضِّياء، وصَلُبت عظامُك على مباشرة الأيدي والتقلُّب على الغَبراء، هاجَ الطَّلقُ بأمِّك، فأزعجك إلى الخروج أيَّما إزعاجٍ، إلى عالم الابتلاء، فرَكَضَك الرَّحِمُ ركضةَ من كأنه لم يضمَّك قطُّ ، ولم يَشْتَمِل عليك!

فيا بُعْدَ ما بين ذلك القبول والاشتمال حين وُضِعْتَ نطفةً، وبين هذا الدَّفع والطَّرد والإخراج! وكان مبتهجًا بحَمْلك فصار يستغيثُ ويَعُجُّ إلى ربِّك مِنْ ثِقَلك.

فمن الذي فتحَ لك بابَه حتى وَلجتَ، ثمَّ ضمَّه عليك حتى حُفِظتَ وكُمِلت، ثمَّ فتحَ لك ذلك البابَ ووسَّعه حتى خرجتَ منه كلمح البصر، لم يخنُقك ضِيقُه، ولم تحبسك صعوبةُ طريقك فيه؟!

فلو تأمَّلتَ حالك في دخولك من ذلك الباب وخروجك منه لذهبَ بك العجبُ كلَّ مذهب؛ فمن الذي أوحى إليه أن يتضايق عليك وأنت نطفةٌ حتى لا تفسُد هناك، ثمَّ أوحى إليه أن يتَّسع لك وينفسح حتى تخرج منه سليمًا؟!

إلى أن خرجتَ فريدًا وحيدًا ضعيفًا، لا قِشْرة ولا لباسَ ولا متاع ولا مال، أحوجَ خلق الله وأضعفَهم وأفقرَهم.

فصُرِف ذلك اللّبنُ الذي كنت تتغذَّى به في بطن أمّك إلى خزّانتين معلَّقتين على صدرها، تحملُ غذاءك على صدرها كما حملتْك في بطنها، ثمَّ ساقه إلى تلك الخزّانتين ألطفَ سَوْقٍ في مَجارٍ وطرقٍ قد تهيَّأت له، فلا يزالُ واقفًا في طرقه ومجاريه حتى تستوفي ما في الخزّانتين، فيجري وينساقُ إليك، فهو بئرٌ لا تنقطعُ مادَّتُها، ولا تنسدُّ طرقُها، يسوقُها إليك في طرقٍ لا يهتدي إليها الطَّوَّاف ، ولا يسلكُها الرَّجَّال .

فمن رقَّقه لك وصفَّاه، وأطابَ طعمَه، وحسَّن لونَه، وأحكمَ طبخَه أعدَل إحكام؛ لا بالحارِّ المُؤذي، ولا بالبارد المُردي ، ولا المُرِّ ولا المالح، ولا الكريه الرائحة، بل قَلَبَه إلى ضربٍ آخرَ من التَّغذية والمنفعة خلاف ما كان في البطن، فوافاك في أشدّ أوقات الحاجة إليه، على حين ظمأٍ شديدٍ وجوعٍ مُفْرِط، جمعَ لك فيه بين الشراب والغذاء؟!

فحين تُولَدُ قد تَلَمَّظتَ وحرَّكتَ شفتيك للرَّضاع، فتجدُ الثَّديَ المعلَّق كالإداوة قد تدلى إليك، وأقبل بدَرِّه عليك، ثمَّ جعل في رأسه تلك الحلَمَة التي هي بمقدار صِغَر فمك فلا يضيقُ عنها ولا يتعب بالتقامها، ثمَّ ثقبَ لك في رأسها ثقبًا لطيفًا بحسب احتمالك، ولم يوسِّعه فتختنقَ باللبن، ولم يضيِّقه فتمصَّه بكُلفة، بل جعله بقَدْرٍ اقتضته حكمتُه ومصلحتُك.

فمن عطفَ عليك قلبَ الأمِّ ووضعَ فيه الحنانَ العجيبَ والرحمةَ الباهرة، حتى تكون في أهنأ ما يكونُ من شأنها وراحتها ومَقيلها، فإذا أحسَّت منك بأدنى صوتٍ أو بكاءٍ قامت إليك وآثرتْكَ على نفسها، على مدى الأنفاس، منقادةً إليك بغير قائدٍ ولا سائقٍ إلا قائدَ الرحمة وسائقَ الحنان، **تودُّ لو أنَّ كلَّ ما يؤلمك بجِسمِها، وأنه لم يطرُقكَ منه شيء، وأنَّ حياتها تزادُ في حياتك، فمن الذي وضع ذلك في قلبها؟!**

حتى إذا قَوِيَ بدنُك، واتسعت أَمعاؤُك، وخشُنت عظامُك، واحتجتَ إلى غذاءٍ أصلبَ من غذائك؛ ليشتدَّ به عظمُك، ويقوى عليه لحمُك، وضعَ في فِيك آلةَ القطع والطَّحن، فنَصَبَ لك أسنانًا تقطعُ بها الطَّعام وطواحينَ تطحنُه بها.

فمن الذي حبسها عنك أيامَ رضاعك رحمةً بأمِّك ولطفًا بها، ثمَّ أعطاكها أيام أكلِك رحمةً بك وإحسانًا إليك ولطفًا بك؟! فلو أنك خرجتَ من البطن ذا سِنٍّ وناب وناجذٍ وضِرس، كيف كان حالُ أمِّك بك؟! ولو أنك مُنِعتَها وقتَ الحاجة إليها كيف كان حالك بهذه الأطعمة التي لا تُسيغُها إلا بعد تقطيعها وطحنها؟!

وكلَّما ازددتَ قوَّةً وحاجةً إلى الافتنان في أكل المطاعم المختلفة زِيدَ لك في تلك الآلات، حتى تنتهي إلى النَّواجذ فتطيقَ نهشَ اللحم وقطعَ الخبز وكسرَ الصُّلب، ثمَّ إذا ازددتَ قوَّةً زِيدَ لك فيها حتى تنتهي إلى الطَّواحين

التي هي آخرُ الأضراس، فمن الذي ساعدك بهذه الآلات وأنجدَك بها ومكَّنك بها من ضروب الغذاء؟!

ثمَّ إنه اقتضت حكمتُه أن أخرجك من بطن أمِّك لا تعلمُ شيئًا، بل غبيًّا لا عقلَ ولا فهمَ ولا عِلم، وذلك مِنْ رحمته بك؛ فإنك على ضعفك لا تحتملُ العقلَ والفهمَ والمعرفة، بل كنت تتمزَّقُ وتتصدَّع، بل جَعَل ذلك ينشأُ فيك بالتَّدريج شيئًا فشيئًا، فلا يصادفُك ذلك وَهلةً واحدة، بل يصادفُك يسيرًا يسيرًا حتى يتكامل فيك.

واعتَبِر ذلك بأنَّ الطفل إذا سُبِيَ صغيرًا من بلده ومن بين أبويه ولا عقلَ له فإنه لا يؤلمُه ذلك ، وكلَّما كان أقربَ إلى العقل كان أشقَّ عليه وأصعب، حتى إذا كان محتنِكًا عاقلًا فلا تراه إلا كالوالِه الحيران.

ثمَّ لو وُلِدتَ عاقلًا فَهِمًا كحالك في كِبَرك لتنغَّصت عليك حياتُك أعظمَ تنغيص، وتنكَّدت أعظمَ تنكيد؛ لأنك ترى نفسك محمولًا رضيعًا، معصَّبًا بالخِرَق، مربَّطًا بالقُمُط ، مسجونًا في المهد، عاجزًا ضعيفًا عمَّا يحاولُه الكبير، فكيف كان يكون عيشُك مع تعقُّلك التَّامّ في هذه الحالة؟!

ثمَّ لم يكن يوجدُ لك من الحلاوة واللَّطافة والوَقْع في القلب والرحمة بك ما يوجدُ للمولود الطفل، بل تكونُ أنكدَ خلق الله وأثقلَهم وأعنتَهم وأكثرهم فضولًا.

وكان دخولُك هذا العالم وأنت غبيٌّ لا تعقلُ شيئًا ولا تعلمُ ما فيه أهلُه محض الحكمة والرحمة بك والتَّدبير، فتلقى الأشياءَ بذهنٍ ضعيفٍ ومعرفةٍ ناقصة، ثمَّ لا يزالُ يتزايدُ فيك العقلُ والمعرفةُ شيئًا فشيئًا حتى تَأْلفَ الأشياءَ وتَمْرُنَ عليها، وتخرجَ من التأمُّل لها والحيرة فيها، وتستقبلها بحُسْن التصرُّف فيها والتَّدبير لها والإتقان لها.

وفي ذلك وجوهٌ أُخرُ من الحكمة غيرُ ما ذكرناه .

فَمَن هذا الذي هو قيِّمٌ عليك بالمرصاد، يرصدُك حتى يُوافيك بكلِّ شيءٍ من المنافع والآراب والآلات في وقت حاجتك، لا يقدِّمها عن وقتها ولا يؤخِّرها عنه؟!

ثمَّ إنه أعطاك الأظفارَ وقتَ حاجتك إليها لمنافع شتى؛ فإنها تُعِينُ الأصابعَ وتقوِّيها، فإنَّ أكثر العمل لما كان برؤوس الأصابع، وعليها الاعتماد، أُعِينَت بالأظفار قوَّةً لها، مع ما فيها من منفعة حَكِّ الجسم وقَشْط الأذى الذي لا يخرجُ باللحم عنه، إلى غير ذلك من فوائدها .

ثمَّ جمَّلك بالشَّعر على الرَّأس زينةً ووقايةً وصيانةً من الحرِّ والبرد؛ إذ هو مجمَعُ الحواسِّ ومعدِنُ الفِكر والذِّكر وثمرةُ العقل تنتهي إليه .[39]

قل لي من ؟؟؟

سبحانه ما أكرمه!!! (ثمّ التفتت الأرض نحو الأولاد)

---

[39] "خلقك وأنت رضيع..." مفتاح دار السعادة، ابن القيم

أليس من الفضيلة والعدل والإحسان، برّ الوالدين، خاصة عند كبرهما، وقت حاجتهما لكم كما كُنتم أنتم في حاجة لهما عند الصّغر؟

قال تعالى {* وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا} [الإسراء : 23]

فإن كان قد نهى عن قولك لهما أُفّ، فما بالك بغيرها؟

وقال تعالى {* وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ۖ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا} [النساء : 36]

وقال تعالى {وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ} [لقمان : 14]

وجاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: من أحقّ الناس بحسن صُحبتي؟ قال: "أمك ". قال: ثم مَن؟ قال:" أمك". قال: ثم من؟ قال: "أمك". قال: ثم من؟ قال: "ثم أبوك"[40]

[40] صحيح البخاري ومسلم

وقد جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله! أردت الغزو وقد جئت أستشيرك؟ فقال: هل لك أم؟ قال: نعم. قال: فالزمها فإن الجنة تحت رجليها"[41]

بل أمرنا ببرّهما حتى بعد وفاتهما، قال صلى الله عليه وسلم "إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، وعلم ينتفع به، وولد صالح يدعو له"[42]

وقال ﷺ : "ترفع للميت بعد موته درجة. فيقول: أي رب! أي شيء هذه؟ فيقال: ولدك استغفر لك"[43]

وكان ابن عمر رضي الله إذَا خَرَجَ إلى مَكَّةَ، كانَ له حِمَارٌ يَتَرَوَّحُ عليه إذَا مَلَّ رُكُوبَ الرَّاحِلَةِ، وَعِمَامَةٌ يَشُدُّ بهَا رَأْسَهُ، فَبَيْنَا هو يَوْمًا علَى ذلكَ الحِمَارِ، إذْ مَرَّ به أَعْرَابِيٌّ، فَقَالَ: أَلَسْتَ ابْنَ فُلَانِ بنِ فُلَانٍ؟ قالَ: بَلَى، فأعْطَاهُ الحِمَارَ، وَقالَ: ارْكَبْ هذا، وَالْعِمَامَةَ، قالَ: اشْدُدْ بهَا رَأْسَكَ، فَقالَ له بَعْضُ أَصْحَابِهِ: غَفَرَ اللَّهُ لكَ! أَعْطَيْتَ هذا الأعْرَابِيَّ حِمَارًا كُنْتَ تَرَوَّحُ عليه، وَعِمَامَةً كُنْتَ تَشُدُّ بهَا رَأْسَكَ، فَقالَ: إنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى

41 صحيح النسائي، الألباني
42 صحيح مسلم
43 صحيح ابن ماجه، الألباني

اللَّهُ عليه وَسَلَّمَ يقولُ: إنَّ مِن أَبَرِّ البِرِّ صِلَةَ الرَّجُلِ أَهْلَ وُدِّ أَبِيهِ بَعْدَ أَنْ يُوَلِّيَ، وإنَّ أَبَاهُ كانَ صَدِيقًا لِعُمَرَ.[44]

الأولاد ودموعهم تذرف:
ليُسامحنا الله ووالدينا على تقصيرنا تُجاههما

الأرض:
آمين... هذا هو دين الله البرّ الرحيم، دين الفطرة... ثمّ انظروا إلى آثار تربيته...

فقد "كان رجلان من أصحاب رسول الله ﷺ أبرَّ من كانا في هذه الأُمَّة بأُمِّهما: عثمان بن عفان، وحارثة بن النُّعمان رضي الله عنهما.
فأمَّا عثمان فإنه قال: ما قدرت أن أتأمل أُمِّي منذ أسلمت.
وأمَّا حارثة فإنه كان يُفلِّي رأس أُمَّه، ويطعمها بيده، ولم يستفهمها كلامًا قطُّ تأمر به، حتى يسأل من عندها بعد أن يخرج: ماذا أرادت أُمِّي؟!

[44] صحيح مسلم

وكان أبو هريرة -رضي الله عنه- إذا أراد أن يخرج من بيته وقف على باب أمه، فقال: "السلام عليك يا أماه ورحمة الله وبركاته، فتقول: وعليك السلام يا ولدي ورحمة الله وبركاته. فيقول: رحمك الله كما ربيتني صغيراً. فتقول: رحمك الله كما بررتني كبيراً" .

وإذا أراد أن يدخل صنع مثل ذلك.

وكان -رضي الله- عنه يحمل أُمَّه إلى المرفق [الكنيف] ويُنزلها عنه، وكانت مكفوفة.

وقال ابن سيرين: "بلغت النخلة ألف درهم، فنقرت نخلة من جمارها. فقيل لي: عقرت نخلة تبلغ كذا، وجماره بدرهمين؟ قلت: "قد سألتني أمي، ولو سألتني أكثر من ذلك لفعلت" .

ودخل رجل على ابن سيرين فوجده مُتغيِّرًا، فقال: ما شأن محمد أيشتكي؟ قالوا: لا، ولكنه هكذا يكون إذا كان عند أُمِّه.

وكان محمد بن الحنفية يغسل رأس أمِّه بالخطمي، ويمشطها ويخضبها.

وكان الحسن بن علي يخاف أن يأكل مع أُمِّه، وكان أبرُّ الناس بها، فقيل له في ذلك فقال: أخاف أن آكل معها، فتسبق عينها إلى شيء من الطعام وأنا لا أدري فآكله، فأكون قد عققتها !!

وكانت حفصة بنت سيرين تترَّحم على ابنها هذيل وتقول: كان هذيل يعمد إلى القصب، فيقشره ويجففه في الصّيف، لئلاَّ يكون له دخان، فإذا كان الشتاء جاء حتى قعد خلفي وأنا أُصلِّي، فيوقد وقودًا رفيقًا، يُنالني حرُّه، ولا يؤذيني دخانه، وكنت أقول له: يا بُنيَّ ! اذهب الليلة إلى أهلك فيقول: يا أُمَّاه ! أنا أعلم ما يريدون، فأَدَعه، فرُبَّما ظلَّ كذلك حتى الصباح.

وكان يبعث إليَّ بحَلْبة الغداة، فأقول: يا بُنيَّ! تعلم أني لا أشرب نهارًا، فيقول: أطيب اللبن ما بات في الضرع، فلا أحبُّ أن أُوثر به أحدًا عليك، فابعثي به إلى من أحببت.

فمات هذيل، فوجدت عليه وجدًا شديدًا، وكنت أجد مع ذلك حرارة في صدري لا تكاد تسكن. قالت: فقمت ليلة أُصلِّي، فاستفتحت النحل،

فأتيت إلى قوله تعالى: " مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللهَ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ " [النحل: 96]. فذهب عني ما كنت أجد.

وحدَّث أنس بن النضر الأشجعي قال: استقت أم ابن مسعود رضي اللهَ عنه ماءً في بعض الليالي، فذهب ابن مسعود فجاءها بشُربة ماءٍ، فوجدها قد ذهب بها النوم، فكره أن يوقظها، فلم يزل واقفًا عند رأسها ومعه الماء حتى أصبح.

وكان ظبيان بن علي الثوري من أبرِّ الناس بأُمِّه، ولقد نامت أُمُّه ليلةً وفي صدرها عليه شيء، فقام على رجليه يكره أن يوقظها، ويكره أن يقعد، حتى إذا ضعف جاء غلامان من غلمانه، فما زال معتمدًا عليهما حتى استيقظت.

وكان محمد بن عبد الرحمن بن أبي الزناد بارًّا بأبيه، وكان أبوه إذا ناداه فلا يُجيبه وهو قاعد، بل يثب فيقوم على رأسه فيلبيه، فيأمره أبوه بحاجته، فلا يستفهمه هيبة له، حتى يسأل من فهم ذلك عنه.

وعن عون بن عبد الله أن أُمَّه نادته فأجابها، فعلا صوتُه، فأعتق رقبتين.

وقال بكر بن عباس : بينما كنت مع منصور في مجلسه جالسًا، إذ صاحت به أُمُّه -وكانت فظة غليظة- فقالت: يا منصور ! يريدك ابن هبيرة على القضاء فتأبى؟ وهو واضع لحيته على صدره ما يرفع طرفه إليها.

وقال سفيان بن عُيينة: قدم رجل من سفر، فصادف أُمَّه قائمة تُصلي، فكره أن يقعد وأُمُّه قائمة، فعلمت ما أراد، فطوَّلت ليؤجر.

قال المأمون: لم أرَ أبرَّ من الفضل بن يحيي بأبيه، بلغ من برِّه بأبيه أن يحيي كان لا يتوضأ إلا بالماء الحارِّ، وكانا في السجن معًا، فمنعهما السجَّان من إدخال الحطب في ليلة باردة، فقام الفَضْل حين أخذ يحيي مضجعه

إلى قمقم -إناء صغير من نحاس- كان بالسجن، فملأه بالماء، وأدناه من المصباح، فلم يزل قائمًا وهو في يده حتى أصبح. وحُكي أن السجَّان فطن لحيلة الفضل في تسخين الماء لأبيه، فمنعهما من المصباح في الليلة القابلة، فأخذ الفضل الإناء مملوءًا معه إلى فراشه، وألصقه بأحشائه، حتى أصبح وقد فتر الماء."[45]

وشهد أبو بُردة ابن عمر رضي الله عنهما ورجلا يمانيا يطوف بالبيت قد حمل أُمَّه على ظهره وهو يقول:

إني لها بعيرها المذلَّلُ إذا الرِّكابُ نفرت لا أنفرُ

ما حَمَلَتْ وأرضَعَتْني أكثر ربِّي ذو الجلال أكبرُ

ثم التفت إلى ابن عمر وقال: أتراني قضيت حقَّها؟ فقال ابن عمر: لا، ولا بطلقة واحدةٍ من طلقاتها، ولكنَّك أحسنت والله يُثيبُك على القليل كثيرًا.[46]

---

[45] بر الوالدين، ابن الجوزي (بتصرف)
[46] صحيح الأدب المفرد، الألباني

هذه هي تربية الدّين الإسلامي!... قارنوا بينها وبين تربية الملاحدة والنّسوية، الذين نزعوا الرحمة من الأمّ والأولاد، وأكثروا من بناء الحاضنات للصغار والكبار، بما يُسمّى بيت المُسنّين. أهذا هو التقدّم والتحضّر الذي ينشدونه؟!!

هذا هو العدل يا أوليفر، المرأة، كما أنّها قد تكون زوجة، فقد تكون أيضا أمّا، أو أختا، أو عمّة، أو خالة... وها قد رأينا مكانتها وقدرها عند الله -عز وجل-، تجاوزت الرّجل، الأب. بل لو كان الابن ملكا، فهناك امرأة فوقه، هي أمّه.

أوليفر:

صحيح...

الأرض:

ثمّ تلى إحسان الوالدين، الأقارب كما في قوله تعالى عند سؤال الناس ماذا ينفقون، فقال تعالى {يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ ۖ قُلْ مَا أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ} [البقرة : 215]

وقال النبي ﷺ : مَن أَحَبَّ أَنْ يُبْسَطَ له في رِزْقِهِ، ويُنْسَأَ له في أَثَرِهِ، فَلْيَصِلْ رَحِمَهُ.[47]

والرّحم، هم الأقارب، من أخ وأخت، وعم وعمة، وخال وخالة، وغيرهم، الأقرب فالأقرب. وهذا هو الذي تستحسنه الفطرة ولا ترضى غيره. فأخوك أو أختك تربطكما رابطة الدّم، ورابطة الوالدين. ثمّ إنكم تنشؤون مع بعض، تنامون وتأكلون وتفرحون وتحزنون مع بعض، وغيرها من المواقف، فهل بعد كلّ هذا يُقدّم إحسان غيرهم عنهم فضلا عن قطع الصلة بهم؟!

وما ترونه من تقاطع بين الأخوين والأقارب، ما هو إلا خلافا للفطرة وانتكاسا عنها إلى الرذيلة.

وقَالَ رجل: يَا رَسُول الله إِنَّ لِي قَرابَةً أَصِلُهُمْ وَيَقْطَعُونِي، وَأُحسِنُ إِلَيْهِم وَيُسيئُونَ إِلَيَّ، وأَحْلُمُ عنهُمْ وَيجْهلُونَ عليَّ، فَقَالَ: "لَئِنْ كُنْت كَمَا قُلْتَ، فَكَأَنَّمَا تُسِفُّهُمُ المَلَّ، وَلاَ يَزَالُ معكَ مِنَ الله ظهِيرٌ عَلَيْهِمْ مَا دمْتَ عَلَى ذَلكَ"[48]

---

47 صحيح البخاري
48 صحيح مسلم

وقال النَّبيّ صَلّى الله عَلَيْهِ وسَلَّم : لَيْسَ الْواصِلُ بِالْمُكافِئ وَلكِنَّ الواصِلَ الَّذي إِذا قَطَعَتْ رَحِمُهُ وصلَهَا"[49]

وغيرها كثير من أحاديث النبي ﷺ.

ثمّ الإحسان إلى اليتيم والمساكين وابن السبيل، قال تعالى {فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلا تَقْهَرْ. وَأَمَّا السَّائِلَ فَلا تَنْهَرْ} [الضحى:٩،١٠] وَقالَ تَعَالَى: {أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ وَلا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ} [الماعون:١،٣]

وقال النبي ﷺ : "أنا وَكافلُ اليتيمِ في الجنَّةِ كَهاتين ، وأشارَ بأصبُعَيْهِ يعني : السَّبَّابةَ والوسطى".[50]

وقَالَ النَّبيّ صَلّى الله عَلَيْهِ وسَلَّم: "اللهَمَّ إِنِّى أُحَرِّجُ حَقَّ الضَّعيفينِ الْيَتِيمِ والمرأَةِ"[51]

---

[49] صحيح البخاري
[50] صحيح الترمذي، الألباني
[51] رواه النسائي بإسناد جيد

ومعنى"أُحَرِّجُ": أُلحقُ الحَرَجَ، وَهُوَ الإِثْمُ بِمَنْ ضَيَّعَ حَقَّهُما، وَأُحَذِّرُ منْ ذلكَ تَحْذيراً بَلِيغاً، وَأَزْجُرُ عَنْهُ زَجْراً أَكيداً.

هذا من جهة الأولوية، وإلا فالمسلمون إخوة بعضهم لبعض، قال تعالى {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ} [الحجرات : 10]

بل كالجسد الواحد، كما قال النبي ﷺ : "تَرَى المُؤْمِنِينَ في تَرَاحُمِهِمْ وتَوَادِّهِمْ وتَعاطُفِهِمْ، كَمَثَلِ الجَسَدِ، إذا اشْتَكَى عُضْوًا تَداعَى له سائِرُ جَسَدِهِ بالسَّهَرِ والحُمَّى"[52].

وقَالَ رَسُول الله صَلّى الله عَلَيْهِ وسَلَّم: "الْمُؤْمنُ للْمُؤْمن كَالْبُنْيَانِ يَشدُّ بَعْضُهُ بَعْضاً" وَشَبَّكَ بَيْنَ أَصَابِعه"[53].

وقال أيضا صلَّى الله عليه وسلَّم: "المُسلِمُ أخو المُسلِمِ لا يَظلِمُه ولا يُسلِمُه، ومَن كان في حاجةِ أخيه كان الله في حاجتِه، ومَن فَرَّج عن مُسلِمٍ

---

[52] صحيح البخاري
[53] متفق عليه

كُربةً فَرَّج الله عنه كُربةً مِن كُرُباتِ يومِ القيامةِ، ومَن ستَر مُسلِمًا ستَرَه الله يومَ القيامةِ".[54]

وقال صَلّى الله عَلَيْهِ وسَلَّم: "المُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ لاَ يخُونُه وَلاَ يكْذِبُهُ وَلاَ يخْذُلُه، كُلُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ حرامٌ عِرْضُهُ ومالُه ودمُهُ التَّقْوَى هَاهُنا، بِحسْبِ امْرِىءٍ مِنَ الشَّرِّ أَنْ يَحْقِرَ أَخاهُ الْمُسْلِمِ".[55]

أتعلمون عن ماذا تدلّ الأخوة؟

الأولاد:

عن ماذا؟

الأرض:

عن **غياب العنصرية**، وأنّه لا حقيقة لها، فالرّوح واحدة ونظامها واحد، كما أن الجسم في الحقيقة واحد وما اختلف فيه إلا اللون أو بعض

---

[54] صحيح البخاري
[55] رواه الترمذي

الملامح. فتجد أسودا كريما شجاعا عاقلا ذكيا، كما تجد مثله من أيّ عرق ولون.

لكن يقع **التفاضل** بينهم، ليس في اللون والعرق، بل **في الروح**، أي أكملها فضائل وأدناها رذائل، وهو واقعي. وما اختلفت الألوان والأعراق إلاّ للتعارف، قال تعالى {يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ} [الحجرات : 13]

وأكّده رسوله الكريم ﷺ إذ قال: "لا فضلَ لعربيٍّ على عجميٍّ، ولا لعجميٍّ على عربيٍّ، ولا لأبيضَ على أسودَ، ولا لأسودَ على أبيضَ - : إلَّا بالتَّقوَى، النَّاسُ من آدمَ، وآدمُ من ترابٍ".[56]

وقال ﷺ : "إِنَّ اللهَ تعالى لَا ينظرُ إلى صُوَرِكُمْ وَأَمْوالِكُمْ ، ولكنْ إِنَّما ينظرُ إلى قلوبِكم وأعمالِكم"[57]

---

[56] رواه أحمد

[57] صحيح الجامع، الألباني

أرأيتم؟ لم ينف الفضل بين النّاس بعضهم بعضا، كما هو الواقع وكما هي الطبيعة، فلا يستوي الطيّب بالخبيث، ولا الصالح بالمُسيء، لهذا قال {إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللهِ أَتْقَاكُمْ}

كذلك، لا يلزم من التفاضل الاحتقار والتعالي، بل صاحب الأخلاق الكريمة لا يرى نفسه أفضل من غيره، ولا يحقر، ولا يستهزأ لأنّ تلك الأوصاف من الاحتقار والاستهزاء هي من الرذائل، وهكذا بيّنها الرسول صَلّى الله عَلَيْهِ وسَلَّم حيث قال: "لا تَحاسدُوا وَلاَ تناجشُوا وَلاَ تَباغَضُوا وَلاَ تَدابرُوا وَلاَ يبِـعْ بعْضُكُمْ عَلَى بيْعِ بعْضٍ، وكُونُوا عِبادَ اللهِ إِخْواناً. المُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ لاَ يَظلِمُه وَلا يَحْقِرُهُ وَلاَ يَخْذُلُهُ. التَّقْوَى هَاهُنا ويُشِيرُ إِلَى صَدْرِهِ ثَلاَثَ مرَّاتٍ بِحسْبِ امْرِيءٍ مِنَ الشَّرِّ أَنْ يَحْقِر أَخاهُ المُسْلِمَ. كُلَّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ حرامٌ دمُهُ ومالُهُ وعِرْضُهُ"[58].

وقال صَلّى الله عَلَيْهِ وسَلَّم أيضا: "لا يُؤْمِنُ أَحدُكُمْ حتَّى يُحِبَّ لأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ"[59].

---

[58] صحيح مسلم
[59] متفق عليه

فكما يحبّ لنفسه الخير، فهو يُحب الخير أيضا لغيره كما لو كان لنفسه.

ولهذا حثّنا الله -عز وجل- على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والنصيحة لعامة الناس، فهي من أكبر علامة المحبّة، قال تعالى {وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} [آل عمران : 104]

وقال تعالى {كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ۗ } [آل عمران : 110]

وقال تعالى {وَالْعَصْرِ (1) إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ (2) إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ (3)} [العصر : 1-3]

وقال تعالى { وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ ۚ } [المائدة : 2]

وَقالَ تَعَالَى إخباراً عن نوحٍ صلى الله عليه وسلم: {وَأَنْصَحُ لَكُمْ} [الأعراف: ٦٢] وعن هود صلى الله عليه وسلم: {وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ} [لأعراف: ٦٨] .

والنَّبِيُّ صَلّى الله عَلَيْهِ وسَلَّم قَالَ: "الدِّينُ النَّصِيحَةُ"قُلْنَا: لِمَنْ؟ قَالَ"لله وَلِكِتَابِهِ ولِرسُولِهِ وَلأَئِمَّةِ المُسْلِمِينَ وَعَامَّتِهِمْ "[60].

وقال جرير بْنِ عبدِ الله رضي الله عنه : بَايَعْتُ رَسولَ الله صَلّى الله عَلَيْهِ وسَلَّم عَلى: إِقَامِ الصَّلاَةِ، وإِيتَاءِ الزَّكَاةِ، وَالنُّصْحِ لِكلِّ مُسْلِمٍ.[61]

ليو:
معذرة يا أمّنا... الحقيقة نُصح الناس صعب جدا، فمنهم من يغضب، ومنهم من يُجادلك ...

الأرض:

---

[60] صحيح مسلم
[61] متفق عليه

صحيح... سأذكر لك بعض القواعد أو الأصول في نصحهم، أو توجيههم، أو مُناقشتهم، أو مُعاملتهم عموما، وهي صالحة مع كلِّ أحد، سواء زميلك، أو صديقك، أو زوجتك أو ابنك...ويحتاجها كلّ أحدٍ من يُريد أن يُعاشر الناس أو يَسُوسهم... وأكثر مشاكل النّاس بينهم هي في مخالفتهم لهذه الأصول، لأنّها **أصول النّفس البشرية**، ومنها فرصة لمعرفة موافقة الدّين لها

ليو:

رائع!

الأرض:

وهذه الأصول تجمعها جملةً هذه الآية الكريمة قال الله -عز وجل- {ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ ۖ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ } [النحل : 125]

فهي أدعى لقبول الحق... فإنّك لو كُنت كما قال تعالى {فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ **فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ** ۖ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ ۖ } [آل عمران : 159]

فالإنسان يُحبّ أن يُعامل باحترام وتقدير، ويبغض عكس ذلك. هذا مُجملا.

أمّا تفصيل ذلك، فكالتالي:

أوّلا: من الحكمة **أن تَرفَقَ بهم فيما يكرهونه،** فعن النبي ﷺ أنه قال: «ما كان الرفق في شيء إلا زانه، ولا كان العنف في شيء إلا شانه». وقال: «إن اللهَ رفيق يحبُّ الرفق، ويعطي على الرفق ما لا يعطي على العنف»

وكان عمر بن عبد العزيز - رضي الله عنه -، أحد الخلفاء، يقول: والله إني أريد أن أخرج لهم المُرَّةَ من الحقِّ، فأخاف أن ينفروا عنها، فأصبر حتى تجيء الحلوةُ من الدنيا، فأخرجها معها، فإذا نفروا لهذه سكنوا لهذه.

وهكذا كان النّبي ﷺ إذا أتاه طالب حاجة لم يردّه ـ وكان محتاجًا ـ إلا بها أو بميسورٍ من القول.

وسأله مرةً بعضُ أقاربه أن يوليه على الصدقات ويرزقه منها فقال: «إن الصدقة لا تحلّ لمحمد ولا لآل محمد». فمنعهم إياها وعوَّضهم من الفيء.

وتحاكم إليه عليٌّ وزيدٌ وجعفر- رضي الله عنهم - في ابنة حمزة، فلم يقض بها لواحد منهم، ولكن قضى بها لخالتها، ثم إنه طيَّب قلبَ كلِّ واحد

منهم بكلمة حسنة، فقال لعلي: «أنت مِنّي وأنا منك»، وقال لجعفر: «أشبهتَ خَلقي وخُلقي»، وقال لزيد: «أنت أخونا ومولانا».

فهكذا ينبغي للمُربّي في حكمه، فإن الناس دائمًا يسألون ما لا يصلح بَذْله من الأموال، والمنافع، والجور، وغير ذلك؛ **فيعوِّضهم من جهةٍ أخرى إن أمكن، أو يردهم بميسورٍ من القول** ما لم يحتج إلى الإغلاظ، فإنَّ ردَّ السائل يُؤْلمُه، خصوصًا من يُحتاج إلى تأليفه، وقد قال تعالى: {وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ} [الضحى: ١٠]، وقال تعالى: {وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا (٢٦) إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا (٢٧) وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِنْ رَبِّكَ تَرْجُوهَا **فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا مَيْسُورًا**} (١) [الإسراء: ٢٦ - ٢٨].

وإذا حكم على شخص فإنه قد يتأذَّى، فإذا **طيَّب نفسَه بما يصلح من القولِ والعمل**، كان ذلك تمامَ السياسة، وهو نظيرُ ما يعطيه الطّبيبُ للمريض من الطِّيْب الذي يُسَوِّغ الدواءَ الكريه، وقد قال الله تعالى لموسى ﷺ لما أرسله إلى فرعون: {فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى} [طه: ٤٤].

وقال النبي ﷺ لمعاذٍ وأبي موسى ـ لما بعثهما إلى اليمن ـ: «يسِّرا ولا تُعسِّرا، وبشِّرا ولا تُنفِّرا، وتَطاوعا ولا تختلفا».

وبال مرةً أعرابيٌّ في المسجد فقام أصحابه إليه، فقال ﷺ: «لا تُزْرِمُوه» أي لا تقطعوا عليه بوله، ثم أمر بدلو من ماء فصُبَّ عليه، وقال: «إنما بُعِثتم مُيَسِّرين ولم تُبعَثوا مُعَسِّرين».

وهذا يحتاج إليه الرجل في سياسة نفسه وأهل بيته ورعيته، **فإنَّ النفوس لا تقبل الحقَّ إلا بما تستعين به من حظوظها التي هي محتاجة إليها،** فتكون تلك الحظوظ عبادة لله وطاعة له مع النية الصالحة، ألا ترى أن الأكل والشرب واللباس واجب على الإنسان؟ حتى لو اضطر إلى الميتة وجبَ عليه الأكل عند عامة العلماء، فإن لم يأكل حتى مات دخل النار، لأن العبادات لا تؤدَّى إلا بهذا، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب.[62]

وعلى عكس ذلك، **من كان مرباه بالعسف والقهر** من المتعلّمين أو المماليك أو الخدم، سطا به القهر، وضيَّق عن النّفس في انبساطها،

---

[62] السياسة الشرعية، ابن تيمية (بتصرف)

وذهب بنشاطها، **ودعاه إلى الكسل، وحمل على الكذب والخبث**، وهو التّظاهر بغير ما في ضميره خوفا من انبساط الأيدي بالقهر عليه، **وعلّمه المكر والخديعة لذلك**، وصارت له هذه عادة وخلقا، **وفسدت معاني الإنسانيّة الّتي له** من حيث الاجتماع والتّمرّن، وهي الحميّة والمدافعة عن نفسه ومنزله. وصار عيالا على غيره في ذلك، بل وكسلت النّفس عن اكتساب الفضائل والخلق الجميل، فانقبضت عن غايتها ومدى إنسانيّتها فارتكس وعاد في أسفل السّافلين.[63]

ثانيا: أن تُيسِّر طريق الخير والفضيلة، والإعانة عليه والتّرغيب فيه بكل ممكن، مثل أن تَبذل لولدك أو أهلك أو رعيتك ما يُرَغِّبهم في العمل الصالح من مال أو ثناء أو غيره.

فإن اللهَ تعالى بعث محمدًا ﷺ بشيرًا ونذيرًا، وكان يُؤلف النّاس بالنفع والمال على الإسلام وشرائعه، ويثني على من أحسن فيه، كما أثنى على غير واحد من أصحابه، ويدعو أيضًا لمن أتى بما يستحق الدعاء، كما قال الله تعالى له: {(١٠٢) خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ

63 المقدمة، ابن خلدون

عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ} [التوبة: ١٠٣]، ولهذا قال الفقهاء: ينبغي للإمام إذا قبض الصدقة أن يدعو لمن أعطاها، مثل أن يقول: آجرك الله فيما أعطيت، وبارك لك فيما أبقيت، وجعله لك طهورًا.

وكذلك أيضًا **ذكر فضائل الأعمال الصالحة وثوابها ومنفعتها في الدنيا والآخرة**، فإن الكتاب والسنة مملوءة من ذلك، وهذا أنفع في الحقيقة لمن استجاب له من الرهبة بالعقوبة الدنيوية فقط، وإنما يُصار إلى العقوبة الدنيوية إذا ظلمَ الخلقُ بالنكولِ عن هذه الطريقة، كما قال الله تعالى: {وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ} [العنكبوت: ٤٦].

(...)

وقد كان الرجلُ يُسلِم أوّل النهار رغبة في الدنيا، فلا يجيء آخر النهار إلا والإسلام أحب إليه مما طلعت عليه الشمس»[64].

ويدخل ضمن التيسير، **التدرّج**، وهو أخذ الناس إلى الخير شيئا فشيئا، لأنّ **النّفوس تأنف من ترك المألوف**، ومن أجل ذلك نزل القرآن

---

[64] السياسة الشرعية، ابن تيمية (بتصرف)

مُنجّما، {وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنزِيلًا} [الإسراء : 106]

وقالت عائشة زوج النبي ﷺ ورضي الله عنها : "إِنَّمَا نَزَلَ أَوَّلَ ما نَزَلَ منه سُورَةٌ مِنَ المُفَصَّلِ، فِيهَا ذِكْرُ الجَنَّةِ والنَّارِ، حتَّى إذَا ثَابَ النَّاسُ إلى الإِسْلَامِ نَزَلَ الحَلَالُ والحَرَامُ، ولو نَزَلَ أَوَّلَ شَيءٍ: لا تَشْرَبُوا الخَمْرَ، لَقالوا: لا نَدَعُ الخَمْرَ أَبَدًا، ولو نَزَلَ: لا تَزْنُوا، لَقالوا: لا نَدَعُ الزِّنَا أَبَدًا"[65].

ومثله يكون في التعليم، وللأسف غفل عنه الكثير اليوم، فنتج عنه التكاسل وانطماس الفكر وهجر العلم والتّعلم.

وبيان ذلك، أنّهم يُحضرون للمتعلّم في أوّل تعليمه، المسائل المقفلة من العلم، ويطالبونه بإحضار ذهنه في حلّها، ويحسبون ذلك مرانا على التّعليم، وصوابا فيه، ويكلّفونه رعي ذلك وتحصيله، ويخلطون عليه بما يلقون له من غايات الفنون في مبادئها، وقبل أن يستعدّ لفهمها، فإنّ قَبول العلم والاستعدادات لفهمه تنشأ تدريجا، ويكون المتعلّم أوّل الأمر عاجزا عن الفهم بالجملة، إلّا في الأقلّ وعلى سبيل التّقريب والإجمال والأمثال الحسّيّة. ثمّ لا يزال الاستعداد فيه يتدرّج قليلا قليلا بمخالفة مسائل ذلك الفنّ وتكرارها عليه، والانتقال فيها من التّقريب إلى الاستيعاب الّذي فوقه، حتّى تتمّ المَلَكة في الاستعداد ثمّ في التّحصيل ويحيط هو بمسائل

---

65 السياسة الشرعية، ابن تيمية (بتصرف)

الفنّ. وإذا أُلْقِيت عليه الغايات في البداءات، وهو حينئذ عاجز عن الفهم والوعي وبعيد عن الاستعداد له، كَلَّ ذهنُه عنها، وحسب ذلك من صعوبة العلم في نفسه، فتكاسل عنه وانحرف عن قبوله، وتمادى في هجرانه. وإنّما أتى ذلك من سوء التّعليم. ولا ينبغي للمعلّم أن يزيد متعلّمه على فهم كتابه الّذي أكبّ على التّعليم منه بحسب طاقته، وعلى نسبة قبوله للتّعليم، مبتدئا كان أو منتهيا، ولا يخلط مسائل الكتاب بغيرها حتّى يعيه من أوّله إلى آخره، ويحصّل أغراضه ويستولي منه على مَلَكة بها ينفذ في غيره. لأنّ المتعلّم إذا حصّل مَلَكةً ما في علم من العلوم، استعدّ بها لقبول ما بقي، وحصل له نشاط في طلب المزيد، والنّهوض إلى ما فوق، حتّى يستولي على غايات العلم. وإذا خلط عليه الأمر، عجز عن الفهم، وأدركه الكَلال، وانطمس فِكْره، ويئس من التّحصيل، وهجر العِلْم والتّعليم.[66]

ثالثا: أن تُراعِي طباعهم وهِممهم، فلا تُجبر على ما هو من المُستحبّات، ولا تُنكر على من لا يُريد فعلها، فهِمَمُ النّاس متفاوتة. وتَنوّع الأحكام الشرعيّة في دين الإسلامي، مثل ما هو واجب (أي لابدّ من فعله)، وما هو حرام (أي لابدّ من تركه)، وما هو مُستحب (أي الأفضل فعله) وما هو مكروه (أي الأفضل تركه)، وما هو مُباح (أي لا إثم ولا فضل

---

66 المقدمة، ابن خلدون

عليه)... دليل على أنّه من خالق هذه الطباع. كما فعل النّبي ﷺ مع الأعرابي، إذ جاء إلى رَسولِ الله صَلَّى الله عليه وسلَّمَ ثَائِرَ الرَّأْسِ ، فَقالَ: يا رَسولَ الله أخْبِرْنِي مَاذَا فَرَضَ الله عَلَيَّ مِنَ الصَّلَاةِ؟ فَقالَ: الصَّلَوَاتِ الخَمْسَ إلَّا أنْ تَطَّوَّعَ شيئًا، فَقالَ: أخْبِرْنِي ما فَرَضَ الله عَلَيَّ مِنَ الصِّيَامِ؟ فَقالَ: شَهْرَ رَمَضَانَ إلَّا أنْ تَطَّوَّعَ شيئًا، فَقالَ: أخْبِرْنِي بما فَرَضَ الله عَلَيَّ مِنَ الزَّكَاةِ؟ فَقالَ: فأخْبَرَهُ رَسولُ الله صَلَّى الله عليه وسلَّمَ شَرَائِعَ الإسْلَامِ، قالَ: والذي أكْرَمَكَ، لا أتَطَوَّعُ شيئًا، ولَا أنْقُصُ ممَّا فَرَضَ الله عَلَيَّ شيئًا، فَقالَ رَسولُ الله صَلَّى الله عليه وسلَّمَ أفْلَحَ إنْ صَدَقَ، أوْ دَخَلَ الجَنَّةَ إنْ صَدَقَ.[67]

فلم يفْرض عليه ﷺ ما لم يفْرِضه الله -عز وجل-...

ومن ذلك، إرشادهم إلى ما هو **أفضل بالنسبة له**، كما فعل النبي ﷺ مع سائليه،

أنَّ رَجُلًا سَأَلَ النبيَّ صَلَّى الله عليه وسلَّمَ أيُّ الأعْمَالِ أفْضَلُ؟ قالَ: الصَّلَاةُ لِوَقْتِهَا، وبِرُّ الوَالِدَيْنِ.[68]

---

[67] صحيح البخاري
[68] صحيح البخاري

وسُئِلَ أيُّ الأعْمَالِ أفْضَلُ؟ قالَ: إيمَانٌ باللهِ ورَسولِهِ.[69]

وسئل : أيُّ الناسِ خيرٌ ؟ فقال : طُوبَى لِمَنْ طال عُمُرُه، وحَسُنَ عَمَلُه، قال : يا رسولَ اللهِ ! أيُّ الأعمالِ أفضلُ ؟ ! قال : أنْ تُفارِقَ الدنيا ولسانُكَ رَطْبٌ مِنْ ذِكرِ اللهِ.[70]

وقال له رجل: أوْصِنِي، قالَ ﷺ: لا تَغْضَبْ. فَرَدَّدَ مِرَارًا، قالَ: لا تَغْضَبْ.[71]

وقال له أحدهم: يا رَسولَ اللهِ، قُلْ لي في الإسْلامِ قَوْلًا لا أسْأَلُ عنْه أحَدًا بَعْدَكَ، قالَ: قُلْ: آمَنْتُ باللَّهِ، فَاسْتَقِمْ.[72]

فمن النّاس من جُبِل على حُبّ الصّدقات وفعلها، فيُحثّ عليها... ومنهم على الشّجاعة... ومنهم على التّعليم...وكلّها أبواب خير، فمن أُغلق عليه باب المال، فيستطيع أن يتصدّق ببدنه بحمل حاجات المحتاجين إن مرّ عليه

---

69 صحيح النسائي، الألباني
70 هداية الرواة، الألباني
71 صحيح البخاري
72 صحيح مسلم

ذلك... فإن كان ضعيفا، فبتعليم النّاس، فإن كان لا يقدر، فبغيرها من الخير وهو كثير... بل البشاشة في وجه أخيك صدقة كما قال النبي ﷺ : "لا تَحْقِرَنَّ مِنَ المَعروفِ شيئًا، ولو أنْ تَلْقَى أخاكَ بوَجْهٍ طَلْقٍ".[73]

والمُوفّق من يُحاول فعل كلّها، أو الأكثر... وقد كان أبو بكر الصديق، أفضل صحابة النبي ﷺ، يفعلها كلّها، قال النبي ﷺ يوما: "مَن أصْبَحَ مِنْكُمُ اليومَ صائِمًا؟ قالَ أبو بَكْرٍ: أنا، قالَ: فَمَن تَبِعَ مِنْكُمُ اليومَ جِنازَةً؟ قالَ أبو بَكْرٍ: أنا، قالَ: فَمَن أطْعَمَ مِنكُمُ اليومَ مِسْكِينًا قالَ أبو بَكْرٍ: أنا، قالَ: فَمَن عادَ مِنْكُمُ اليومَ مَرِيضًا قالَ أبو بَكْرٍ: أنا، فقالَ رَسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: ما اجْتَمَعْنَ في امْرِئٍ إلَّا دَخَلَ الجَنَّةَ".[74]

ولا أعني بأن لا تُجبرهم على المستحبّات أن لا تحثّهم عليها، لا، ليس ذلك أعني، وإنّما إنْ لم يفعلوها، فلا تُنكر عليهم، كما لم يُنكر عليهم الله -عز وجل-، فتختلفوا فتختصموا فتفترقوا... وهذا نقيض قصد دين الله -عز وجل-، قال تعالى {وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا} [آل عمران : 103]

---

[73] صحيح مسلم
[74] صحيح مسلم

وكان النبي ﷺ يُوصي سفراءه بعدم الاختلاف، فيقول لهم : "يَسِّرَا ولَا تُعَسِّرَا، وبَشِّرَا ولَا تُنفِّرَا، وتَطَاوَعَا ولَا تَخْتَلِفَا".[75]

والفُرْقَة تجلب حِرْمان الخير، فقد حُرمنا معرفة ليلة القدر، لعلكم سمعتم بها، بسبب الخلاف الذي حدث عند النبي ﷺ، لَمَّا اشتَدَّ بالنَّبِيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم وجَعُه قال: ائتوني بكِتَابٍ أكتُبْ لكم كِتَابًا لا تَضِلُّوا مِن بَعدِه. قال عُمرُ: إنَّ النَّبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم غَلَبَه الوجَعُ وعِندَنا كِتَابُ الله حَسْبُنا. فاختَلفوا وكثُرَ اللَّغَطُ ، قال: قوموا عنِّي ولا ينبَغي عِندي التَّنازُعُ. فخَرَجَ ابنُ عَبَّاسٍ يقولُ: إنَّ الرَّزِيَّةَ كُلَّ الرَّزِيَّةِ ما حال بَينَ رَسولِ الله صلَّى الله عليه وسلَّم وبَينَ كِتَابِها.[76]

وقال النبي ﷺ : "ما ضَلَّ قومٌ بعدَ هُدًى كانوا عليه، إلَّا أُوتُوا الجَدَلَ. ثمَّ قرأ رسولُ الله صلَّى الله عليه وسلَّم هذه الآيَةَ: مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ".[77]

ولهذا، سدّ الله -عز وجل- أبوابه، فقال تعالى {خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ} [الأعراف : 199]

وأحاديث النبي -صلى الله عليه وسلم كثيرة، منها قول الصحابي : سَمِعتُ رَجُلًا قَرَأَ آيَةً، وسَمِعتُ النَّبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم يَقرَأُ خِلافَها، فجِئْتُ به

---

75 متفق عليه
76 صحيح البخاري
77 صحيح الترمذي، الألباني

النَّبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم فأخبَرْتُه، فعَرَفتُ في وجهِه الكَراهيةَ، وقال: كِلاكما مُحسِنٌ، ولا تَختَلِفوا؛ فإنَّ مَن كان قَبلَكُمُ اختَلَفوا فهَلَكوا.[78]

والحلّ عند الاختلاف، هو قوله ﷺ : "أنا زعيمٌ ببيتٍ في رَبَضِ الجنَّةِ لِمَن ترَكَ المِراءَ وإن كان مُحِقًّا، وببَيتٍ في وَسَطِ الجنَّةِ لِمَن تَرَكَ الكَذِبَ وإن كان مازِحًا، وببَيتٍ في أعلى الجنَّةِ لِمَن حَسُنَ خُلُقُه".[79]

نعم، أُترك، لأنّه لايُثمر إلا الشّحناء.

"والجدال نوعان، فمنه المحمود ومنه المذموم،

أمّا الجِدالُ المحمودُ:

هو الذي يكونُ الغَرَضُ منه تقريرَ الحَقّ وإظهارَه بإقامةِ الأدِلَّةِ والبراهينِ على صِدقِه، وقد جاءت نصوصٌ تأمُرُ بهذا النَّوعِ من الجِدالِ، وقد أمَر اللهُ نبيَّه صلَّى الله عليه وسلَّم بهذا الجِدالِ في قَولِه تعالى {ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ} [النحل: 125] ، وقال جلَّ في عُلاه {وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ }[العنكبوت: 46] .

وأمّا الجِدالُ المذمومُ:

---

[78] صحيح البخاري
[79] صحيح أبي داود، الألباني

هو الجِدالُ الذي يكونُ غَرَضُه تقريرَ الباطِلِ بعدَ ظُهورِ الحَقّ، وطَلَبَ المالِ والجاهِ، وقد جاءت الكثيرُ من النُّصوصِ والآثارِ التي حذَّرت من هذا النَّوعِ من الجِدالِ ونهَت عنه، ومن هذه النُّصوصِ:

قَولُه تعالى {وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَرِيدٍ} [الحج: 3] .

وقَولُه تعالى {وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ }[الحج: 8] .

وقَولُه سُبحانَه {مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلَادِ} [غافر: 4]"[80]

رابعا: كما أنّ همم النّاس تتفاوت، **الفضائل أيضا تتفاوت**... فتصدّقك على شخص فضيلة وخير، وتعليمه الخير أفضل، وإن تصدّقت عليه وعلّمته، فهو أفضل...وقد تتفاوت بحسب الظروف، فعند الحاجة للمال لأمر مهم للمجتمع، فالواجب حينها الحثّ على الصدقات... وهكذا. وهو ما نَتعلّمه من الرسول ﷺ عند رؤيته قوما حُفاة عُراة. والقصّة كالتالي: جَاءَ قَوْمٌ

[80] موقع الدرر السنية

حُفَاةٌ عُرَاةٌ للرسول ﷺ، مُجْتَابِي النِّمَارِ أَوِ العَبَاءِ ، مُتَقَلِّدِي السُّيُوفِ، عَامَّتُهُمْ مِن مُضَرَ، بَلْ كُلُّهُمْ مِن مُضَرَ، فَتَمَعَّرَ وَجْهُ رَسولِ الله صَلَّى الله عليه وَسَلَّمَ لِما رَأَى بِهِمْ مِنَ الفَاقَةِ، فَدَخَلَ ثُمَّ خَرَجَ، فأَمَرَ بلَالًا فأَذَّنَ وَأَقَامَ، فَصَلَّى ثُمَّ خَطَبَ فَقَالَ: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ} إلى آخِرِ الآيَةِ {إِنَّ اللهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا} [النساء: 1]، وَالآيَةَ الَّتِي في الحَشْرِ: {اتَّقُوا اللهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللهَ} [الحشر: 18]، تَصَدَّقَ رَجُلٌ مِن دِينَارِهِ، مِن دِرْهَمِهِ، مِن ثَوْبِهِ، مِن صَاعِ بُرِّهِ، مِن صَاعِ تَمْرِهِ، حتَّى قالَ: ولو بشِقِّ تَمْرَةٍ، قالَ: فَجَاءَ رَجُلٌ مِنَ الأَنْصَارِ بصُرَّةٍ كَادَتْ كَفُّهُ تَعْجِزُ عَنْهَا، بَلْ قَدْ عَجَزَتْ، قالَ: ثُمَّ تَتَابَعَ النَّاسُ، حتَّى رَأَيْتُ كَوْمَيْنِ مِن طَعَامٍ وَثِيَابٍ، حتَّى رَأَيْتُ وَجْهَ رَسولِ الله صَلَّى الله عليه وَسَلَّمَ يَتَهَلَّلُ كَأَنَّهُ مُذْهَبَةٌ ، فَقالَ رَسولُ الله صَلَّى الله عليه وَسَلَّمَ: مَن سَنَّ في الإسْلَامِ سُنَّةً حَسَنَةً، فَلَهُ أَجْرُهَا وَأَجْرُ مَن عَمِلَ بهَا بَعْدَهُ، مِن غيرِ أَنْ يَنْقُصَ مِن أُجُورِهِمْ شَيءٌ، وَمَن سَنَّ في الإسْلَامِ سُنَّةً سَيِّئَةً، كانَ عليه وِزْرُهَا وَوِزْرُ مَن عَمِلَ بهَا مِن بَعْدِهِ، مِن غيرِ أَنْ يَنْقُصَ مِن أَوْزَارِهِمْ شَيءٌ.[81]

فاعرفوا مراتب الفضائل حتى تهتموا بالأهم فالأهم.

---

[81] صحيح مسلم

كما عليكم **أن تعرفوا مراتب الرذائل** أيضا، فهي تتفاوت، فتهتموا بالتّحذير من الأشرّ ثم الأدنى.

بل **عليكم أن تُوازنوا بينهما، فتقدّموا الأهم، سواء كان ذلك الأهم هو دفع الرّذيلة، أو جلب الفضيلة.** "فإذا رأيت من يعمل رذيلة ولا يتركها إلا إلى شرّ منها، فلا تدعوه إلى ترك منكر بفعل ما هو أنكر منه، ولكن عوّض عنه من الخير المشروع بحسب الإمكان، **إذ النفوس لا تترك شيئًا إلا بشيء**، ولا ينبغي لأحد أن يترك خيرًا إلا إلى مثله أو إلى خير منه. فالنّفوس خُلقت لتعمل، لا لتترك، وإنما الترك مقصود لغيره، فإن لم يشتغل بعمل صالح، وإلا لم يترك العمل السيئ، أو الناقص."[82]

وهكذا هو دين الله -عز وجل-، كما رأينا عند كلامنا أنّ من المُحرمات ما فيها منافع، ولكن حُرّمت لأنّ مفسدتها أعظم من نفعها.

وعليه سار النّبي ﷺ وأصحابه وأتباعهم.

فقد قال النبي -صلى الله عليه وسلم لعائشة، زوجه، : يا عَائِشَةُ، لَوْلَا أَنَّ قَوْمَكِ حَدِيثُ عَهْدٍ بجَاهِلِيَّةٍ، لَأَمَرْتُ بالبَيْتِ، فَهُدِمَ، فأدْخَلْتُ فيه ما أُخْرِجَ منه، وأَلْزَقْتُهُ بالأَرْضِ، وجَعَلْتُ له بَابَيْنِ: بَابًا شَرْقِيًّا، وبَابًا غَرْبِيًّا، فَبَلَغْتُ به أَسَاسَ إبْرَاهِيمَ.[83]

---

[82] اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم، ابن تيمية (بتصرف)

[83] صحيح البخاري

وكان عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قد أَسْقَطَ الْقَطْعَ عَنْ السَّارِقِ فِي عَامِ الْمَجَاعَةِ، إذ قَالَ: لَا تُقْطَعُ الْيَدُ فِي عِذْقٍ وَلَا عَامِ سَنَةٍ.

وكان ابْنَ تَيْمِيَّةَ يَقُولُ: مَرَرْت أَنَا وَبَعْضُ أَصْحَابِي فِي زَمَنِ التَّتَارِ بِقَوْمٍ مِنْهُمْ يَشْرَبُونَ الْخَمْرَ، فَأَنْكَرَ عَلَيْهِمْ مَنْ كَانَ مَعِي، فَأَنْكَرْت عَلَيْهِ، وَقُلْت لَهُ: إنَّمَا حَرَّمَ اللهُ الْخَمْرَ لِأَنَّهَا تَصُدُّ عَنْ ذِكْرِ اللهِ وَعَنْ الصَّلَاةِ، وَهَؤُلَاءِ يَصُدُّهُمْ الْخَمْرُ عَنْ قَتْلِ النُّفُوسِ وَسَبْيِ الذُّرِّيَّةِ وَأَخْذِ الْأَمْوَالِ فَدَعْهُمْ.

خامسا: الأفراد هم أيضا يتفاوتون، لا أعني بالهِمم، فكلامك مع السّلطان، ليس هو ككلامك مع فرد من المجتمع... وليس هذا تمييز وعنصرية، فالعُنصريّة لونٌ، وهذا لونٌ آخر، هذه **آداب**... انظر إلى وصية الله -عز وجل- لنبيه موسى -عليه السلام- في كلامه مع فرعون... هذا الذي ادعى الرُّبوبيّة، أي حقّ الله الأعظم، وقَتل أولاد بني إسرائيل، قوم موسى، وأذلّهم... ثم يقول الله -عز وجل- لموسى {اذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ (43) فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا} لماذا ؟ { لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ (44)} [طه : 43-44]

ولا كلامك مع الكبير ككلامك مع الصّغير، يقول النبي ﷺ : "ليس منا من لم يرحمْ صغيرَنا ، ويُوَقّرْ كبيرَنا"[84] ، فكلامك مع الكبير يجب أن يكون فيه توقيرا له، ومعرفة تقدّمه في السن والحياة ومزيد خبرة عليك.
أمّا الصغير، فيجب أنّ يكون فيه الرحمة واللطف والبشاشة...
وللتحيّة آداب، يقول الرسول ﷺ : "يُسَلِّمُ الرَّاكبُ عَلَى الْمَاشِي، وَالْماشي عَلَي القَاعِدِ، والقليلُ عَلَى الكَثِيرِ"[85] والصغيرُ عَلَى الْكَبِيرِ".[86]

وللأكل آداب، منها ما قاله الرسول ﷺ : "سَمِّ اللَّه وكُلْ بِيمِينكَ، وكُلْ مِمَّا يَلِيكَ "[87]. متفقٌ عَلَيهِ.

وللضيف آداب، قال رسول الله ﷺ : "مَنْ كَانَ يؤمِنُ بِاللَّه واليوْمِ الآخِرِ فَلْيُكرِمْ ضَيفَهُ جَائِزَتَهُ"قالوا: وَمَا جَائِزَتُهُ يَا رسول اللَّه؟ قَالَ:"يَومُه وَلَيْلَتُه. والضِّيَافَةُ ثَلاثَةُ أَيَّامٍ، فَمَا كَانَ وَرَاءَ ذلكَ فَهُوَ صَدَقَة عَلَيْهِ"[88]

وغيرها كثير من الآداب، من آداب النوم، والاستيقاظ، واللباس...حتّى أنّه ﷺ يستحبّ تقديم اليمين في كل ما هو من باب

---

[84] صحيح الترغيب، الألباني
[85] متفق عليه
[86] في رواية البخاري
[87] متفق عليه
[88] متفق عليه

التكريم كالوضوءِ وَالغُسْلِ والتَّيَمُّمِ، وَلُبْسِ الثَّوْبِ وَالنَّعْلِ وَالخُفِّ وَالسَّرَاوِيلِ وَدُخولِ المسجد، والسواك، والاكتحال، وتقليم الأظافر، وَقَصِّ الشَّارِبِ وَنَتْفِ الإبْطِ، وَحلقِ الرَّأسِ، وَالسّلامِ مِنَ الصَّلاةِ، وَالأكْلِ والشُّربِ، وَالمُصافحَةِ، وَاسْتِلامَ الحَجَرِ الأَسْوَدِ، والخروجِ منَ الخلاءِ، والأخذ والعطاء، وغيرِ ذَلِكَ مِمَّا هُوَ في معناه. واستحبّ تَقديمَ اليسارِ في ضدِ ذَلِكَ، كالامْتِخَاطِ وَالبُصَاقِ عن اليسار، ودخولِ الخَلاءِ، والخروج من المَسْجِدِ، وخَلْعِ الخُفِّ والنَّعْلِ والسراويلِ والثوبِ، والاسْتِنْجَاءِ وفِعلِ المُسْتَقْذرَاتِ وأشْبَاه ذَلِكَ.[89]

آسفة، نسيتُ نفسي، أطلتُ في الكلام، ولعلّي ضَيَّعتُكم...

ليو:

لا لا، كلامك حقا جميل وممتع، والأصول التي ذكرتيها حقا واقعية، وأظنّ قد حفظتها، فهي راجعة لأصل واحد وهو الدعوة بالحكمة وحسن الكلام، وتفصيلها أوّلا: الرفق بهم، وتطْيِيبُ نفوسهم، والابتعاد عن الشدّة. ثانيا: تيسير الخير لهم، وترغيبهم فيه وذكر فضائله ونفعه، وأخذهم بالتدرّج. ثالثا: مُراعات طِباعهم وهِممهم، فلا نَفرِض ما لم يفرضه اللهَ،

[89] رياض الصالحين، النووي

ولا ننكر على ما لم يُنكره الله، وارشاد كلّ بحسبه. رابعا: الفضائل والرذائل تتفاوت، وعلينا تقديم الأهم ودفع الأضر مع مراعاة ما يترتب عليه. خامسا وأخيرا: مراعاة مراتب الناس، وهي الآداب، لكلٍ أدب خاص به.

الأرض:

ما شاء الله! أحسنت أحسنت

ليو وقد احمرّ وجهه:

لأنّ كلامك حقا مفيد جدا

الأرض:

الحمد لله... ومن حقوق الأُخوّة وشِيَم الأخلاق، نصرة أخاك، قال رسول الله ﷺ : "انْصُرْ أَخَاكَ ظَالِماً أَوْ مَظْلُوماً" فقَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُول الله أَنْصرهُ إِذَا كَانَ مَظلُوماً، أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ ظَالِماً كَيْفَ أَنْصُرُهُ؟ قَالَ:"تَحْجُزُهُ أَوْ تَمْنعُهُ مِنَ الظُّلْمِ فَإِنَّ ذلِك نَصْرُهْ"[90].

[90] صحيح البخاري

وسَتْرِ عوراته، قَالَ النَّبيّ ﷺ : "لاَ يسْتُرُ عَبْدٌ عبْداً فِي الدُّنْيَا إِلاَّ سَتَرَهُ الله يَوْمَ الْقيامَةِ "[91].

وقال النبيّ ﷺ : "منْ سَتَرَ مُسْلِماً سَترهُ الله فِي الدنْيا وَالآخِرَةِ"[92].

وسَتْر العورات من أخلاق النبلاء، فما من إنسان إلا وله زلّات وسَقَطات، إلاّ من عُصم. لهذا قال النبي ﷺ "من ستر مسلما ستره الله"، أي أنّ الذي ستر مسلما هو أيضا له زلات، وجوزِيَ على ستر عورة أخيه بستر الله له في الدنيا والآخرة.

بل حذّر النبي ﷺ مِن تتبّع عورات المسلمين، فإن لم يرغب في ستر الله له في الدنيا والآخرة، فقد يرهب من افتضاح أمره وهتك عورته، قال النبي ﷺ : "يا مَعْشَرَ مَن آمن بلسانه ولم يَدْخُلِ الإيمانُ قلبَه ، لا تغتابوا المسلمينَ ، ولا تَتَّبِعُوا عَوْرَاتِهِم ، فإنه مَن تَتَبَّعَ عَوْرَةَ أَخِيه المسلمِ ، تَتَبَّعَ الله عَوْرَتَه ، ومَن تَتَبَّعَ الله عَوْرَتَه ، يَفْضَحْهُ ولو في جوفِ بيتِه".[93]

وما هذا إلا لخطورة هذا الخلق الذميم سواء على المكشوف أمره، أو المجتمع. أما المكشوف أمره قد يتأذى نفسيّا ويستحيي أن يقابل الناس حتى من أهله، بل قد يصل به الأمر إلى الانتحار، وهو كثير في الواقع. حتى أهله قد يستحيون، ويُستهزئ بهم إلى غير ذلك.

---

91 صحيح مسلم
92 صحيح مسلم
93 صحيح أبي داود، الألباني

أما في المجتمع، فإنّ هتك عورات الناس يُعين على نشر الرذيلة، ويُعين النّاس على الاجتراء على الرذيلة ويقول ها قد فعلها فلان، ومن لم يعرف بها ها قد عرفها، وكما تعلمون كل ممنوع مرغوب. حتى يتطبّع الناس على الفاحشة والرذيلة، لهذا قال تعالى : {إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ} [النور:١٩]
ومع ذلك، فليس كلّ أمر يجب ستره، فمن كان ضررُه مُتعدّيًا، وفسادُه باديًا، وأذاه ظاهرًا كمن كان مُروِّجًا لرذيلةٍ، أو كان مُروّجًا للمُخدّرات والمُسكِرات والمُنبّهات والمُفتّرات،، فلا يحِلُّ السَّترُ عليه ووجبَ رفعُ أمره إلى ولِيّ الأمر أو نوَّابه لقطع فساده وحماية المُسلمين من إفساده، وليس ذلك من الغِيبة المُحرَّمة؛ بل هو من النصيحة الواجبة.

ومن الأخلاق الفاضلة التي حثّ الله عليها تُجاه بعضنا لبعض، تفريج الكُربات، واحتمال الأذى والعفو عن من ظلمنا، قال تعالى {وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (134)} [آل عمران : 134-133]

وقال تعالى {خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ} [الأعراف : 199]

وقال تعالى {وَلَا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ أَن يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللهُ لَكُمْ وَاللهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ} [النور : 22]

وَقالَ تَعَالَى: {وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ} [الحجر: ٨٨]

وقال النبي ﷺ : "مَنْ نَفَّس عَنْ مُؤْمِنٍ كُرْبة منْ كُرب الدُّنْيا، نفَّس الله عنْه كُرْبة منْ كُرَب يومِ الْقِيامَةِ، ومنْ يسَّرَ عَلَى مُعْسرٍ يسَّرَ الله عليْه في الدُّنْيَا والآخِرةِ، ومنْ سَتَرَ مُسْلِماً سَترهُ الله فِي الدنْيا وَالآخِرَةِ، والله فِي عوْنِ العبْد مَا كانَ العبْدُ في عوْن أَخيهِ"[94]

أوليفر:
أنا، إذا عفوتُ عن النّاس اتّهموني بالذّل والجُبْن... وقد تركتُ العفو كُرها للذّل... فهل هذا صحيح؟ وهل فعلي سليم؟

الأرض:

[94] صحيح مسلم

أخطؤوا في اتّهامهم... وإنّي مُتفهّمة رأْيهم، وأَعلمُ الدّاعي له،لأنّ النّفس بفطرتها السّليمة تكره الذلّ، وتُحبّ العفو، لكن اشتبه عليها الأمر بينهما، ولهذا كما قُلنا أرسل اللهُ -عز وجل- الرّسلَ، ليُبيّنوا لنا العدل الفصل في مثل هذه المسائل.

فالفرق بين العفو والذلِّ، هو أنَّ العفوَ إسقاطُ حقّك جُودًا وكرمًا وإحسانًا، مع قُدرتك على الانتقام، فتؤثر التركَ رغبةً في الإحسان ومكارم الأخلاق. بخلاف الذُّلِّ، فإن صاحبَه يترك الانتقامَ عجزًا وخوفًا ومهانةَ نفس، فهذا مذموم غير محمود. ولعل المنتقمَ بالحق أحسنُ حالًا منه.

قال تعالى: {وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ} [الشورى: ٣٩]، فمدَحهم بقوتهم على الانتصار لنفوسهم وتقاضيهم منها ذلك، حتى إذا قدروا على من بَغَى عليهم، وتمكَّنوا من استيفاء ما لهم عليه، ندَبهم إلى الخلُق الشريف من العفو والصَّفح، فقال: {وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ} [الشورى: ٤٠]. **فذكر المقامات الثلاثة: العدل وأباحه، والفضل وندبَ إليه، والظلمَ وحرَّمه.**

فإن قيل: فكيف مدَحهم على الانتصار والعفو، وهما متنافيان؟

قيل: لم يمدَحْهم على الاستيفاء والانتقام، وإنما مدحهم على الانتصار، وهو القدرة والقوة على استيفاء حقهم، فهذا هو الانتصار، فلما قدروا ندَبهم إلى العفو.

قال بعض السلف في هذه الآية: كانوا يكرهون أن يُستذَلُّوا، فإذا قدروا عفوا. فمدَحهم على عفوٍ بعد قدرة، لا على عفو ذلٍّ وعجز ومهانة. وهذا هو الكمالُ الذي مدَح سبحانه به نفسَه في قوله: {فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا} [النساء: ١٤٩]، وقوله: {وَاللَّهُ قَدِيرٌ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ} [الممتحنة: ٧].

وفي أثر معروف: «حملة العرش أربعة: اثنان يقولان: سبحانك اللهَمَّ ربَّنا وبحمدك، لك الحمدُ على حِلْمك بعد علمك. واثنان يقولان: سبحانك اللهَم ربنا وبحمدك، لك الحمد على عفوك بعد قدرتك».

ولهذا قال المسيح صلوات الله وسلامه عليه: {إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} [المائدة: ١١٨]. أي: إن غفرتَ لهم غفرتَ عن عزَّةٍ وهي كمالُ القدرة، وحكمةٍ وهي كمالُ العلم. فغفرتَ بعد أن علمتَ ما عملوا وأحاطت بهم قدرتك، إذ المخلوق قد يغفر لعجزِه عن الانتقام، وجهلِه بحقيقة ما صدَر من المُسيء. والعفوُ من المخلوق ظاهرُه ضيمٌ وذلٌّ، وباطنه عزٌّ ومهابة. والانتقامُ ظاهرُه عزٌّ، وباطنُه ذلٌّ، فما زاد اللهُ عبدًا بعفوٍ إلا عزًّا، ولا انتقم أحد لنفسه إلا ذلَّ، ولو لم يكن إلا بفوات عزِّ العفو. ولهذا ما انتقم رسول اللهِ ﷺ لنفسه قط .

وتأمل قوله سبحانه: {هُمْ يَنْتَصِرُونَ} [الشورى: ٣٩] كيف يُفهم منه أنَّ فيهم من القوة ما يكونون هم بها المنتصرين لأنفسهم، لا أن غيرهم هو الذي ينصرهم؟ ولما كان الانتصار لا تقف النّفوس فيه على حدِّ العدل غالبًا بل لابد من المجاوزة، شرَع فيه سبحانه المماثلة والمساواة، وحرَّم الزيادة، وندَب إلى العفو. والمقصودُ أن العفو من أخلاق النّفس الطيّبة والذلَّ من أخلاق النّفس الدّنيّة.[95]

أوليفر واصفا شعوره بالاطمئنان:

لقد أثلجتِ صدري

الأرض:

ليس في الرذائل خيرا

ليو:

ما هذا؟! لو وُجدت مثل هذه الأخلاق فينا لعشنا سعداء مطمئنين البال

الأرض:

---

[95] الروح، ابن القيم

لقد ذكرتَ سرا مهما من أسرار الفطرة، ألا وهو أنّ **التخلق بالفضائل سبب من أسباب السعادة.** كما أنكم ترون من أُحسن إليه أو تُصدّق عليه يُسرّ بذلك الإحسان، ففعل الإحسان نفسه يسرّ فاعله، أي المُحسِن كما قال أحدهم: إنّي لأفرحُ بالعطاءِ، وأَلْتَذُّ به أعظمَ مما يفرحُ الآخذُ بما يأخذه مني.

وفي هذا قيل في مدح بعض الكُرَماء :

وتأْخذُه عندَ المَكَارِم هِزَّةٌ ... كما اهْتَزَّ عندَ البَارح الغُصُنُ الرَّطْبُ

قال شاعرُ الحماسة :

تراهُ إذا ما جِئْتَهُ مُتَهَلِّلًا ... كأنَّك تُعطيه الذي أنتَ سائِلُهْ

وكثيرٌ من الأجواد يعشقُ الجودَ أعظمَ عِشق، فلا يصبِرُ عنه مع حاجته إلى ما يجودُ به، ولا يقبلُ فيه عَذْلَ عاذلٍ، ولا تأخذُه فيه لومةُ لائم.

وقال المأمون: لقد حُبِّبَ إليَّ العفوُ حتى خشيتُ ألَّا أُؤْجَر عليه .

وقيل للإمام أحمد بن حنبل رحمه الله تعالى : تعلَّمتَ هذا العلمَ لله؟ فقال: أمَّا لله فعزيز، ولكنْ شيءٌ حُبِّبَ إليَّ، ففعلتُه.

نعم ففي **فعل الفضائل والتخلق بها لذّة** كبيرة.

أمّا الخبائث، فإنّها تضرّ صاحبها، سواء اشترى وتناول ما يضرّه في صحته أو فكره، أو بالاسراف في المباحات مما يرجع أيضا لمضرته. أو بالضرر على الآخرين بظلمه إياهم.

وكما جعل في الفضائل لذّة، جعل **لذّةَ الخَبيث تُعقبها ألما وشقاء** على عكس لذّة الطّيب التي تُعقبها بهجة واطمئنانا. وما هذا إلاّ تنفيرا للإنسان من الخبيث وحثّه على الطيّبات.

بل **كلُّ لذَّةٍ أعقبت ألمًا، أو منعت لذَّةً أكمل منها؛ فليست بلذَّةٍ في الحقيقة**، وإن غالطت النَّفْس في الالتذاذ بها، فأيُّ لذَّة لآكل طعامٍ شهيٍّ مسمومٍ يُقَطِّع أمعاءَه عن قريب؟ وأيّ لذة لمُدْمن الحَشيش، يُدمّر صحته

وحياته وحياة الآخرين؟ وأيّ لذة في السّهر في النوادي الليلية يُفوّت على نفسه النّجاح والتمتع الدائم؟...وأيّ لذة في إتيان الذَّكرِ ذكرا مثله؟!

فسبحانه ما أَحْكمه!

وهذه الحقيقة قد فطن لها العقلاء،

قال عنترة:

لا تَسقِني ماءَ الحَياةِ بِذِلَّةٍ

بَل فَاسقِني بِالعِزِّ كَأسَ الحَنظَلِ

ماءُ الحَياةِ بِذِلَّةٍ كَجَهَنَّمٍ

وَجَهَنَّمٌ بِالعِزِّ أَطيَبُ مَنزِلِ

وقال أيضا:

فَلا تَرضى بِمَنقَصَةٍ وَذُلٍّ

وَتَقنَع بِالقَليلِ مِنَ الحُطامِ

فَعَيشُكَ تَحتَ ظِلِّ العِزِّ يَوم

وَلا تَحتَ المَذَلَّةِ أَلفَ عامِ

وقال حاتم الطائي:

أَما وَالَّذي لا يَعلَمُ الغَيبَ غَيرُهُ

وَيُحيّ العِظامَ البيضَ وَهيَ رَميمُ

لَقَد كُنتُ أَطوي البَطنَ وَالزادُ يُشتَهى

مَخافَةَ يَوماً أَن يُقالَ لَئيمُ

وقال علي بن أبي طالب:

فَإِن تَسأَلَنّي كَيفَ أَنتَ فَإِنَّني

صَبورٌ عَلى رَيبِ الزَمانِ صَعيبُ

حَريصٌ عَلى أَن لا يُرى بي كَآبَةٌ

فَيشمُتُ عادٍ أَو يُساءَ حَبيبُ

وقال أبو فراس الحمداني

تَهونُ عَلَينا في المَعالي نُفوسُنا

وَمَن خَطَبَ الحَسناءَ لَم يُغلِها المَهرُ

وقال أيضا:

صَبورٌ وَلو لَم تَبقَ مِنّي بَقِيَّةٌ

قَؤولٌ وَلَو أَنَّ السُيوفَ جَوابُ

وَقورٌ وَأَحداثُ الزَمانِ تَنوشُني

وَلِلمَوتِ حَولي جيئَةٌ وَذَهابُ

وقد ذكر الله -سبحانه وتعالى- لنا في القرآن **قصّة النّبي يوسف** -عليه السلام- من العفاف وايثاره ألم السجن على ألم الحرام.

فإن الداعي الذي اجتمع في حقه لم يجتمع في حق غيره، فإنه ﷺ كان شابًّا، والشباب مركب الشهوة. وكان عزبًا، ليس عنده ما يعوِّضه، وكان غريبًا عن أهله ووطنه، والمقيمُ بين أهله وأصحابه يستحيي منهم أن يعلموا به، فيسقط من عيونهم، فإذا تغرَّب زال هذا المانع. وكان في صورة المملوك، والعبدُ لا يأنفُ مما يأنفُ منه الحرُّ.

وكانت المرأة ذات منصبٍ وجمالٍ، والداعي مع ذلك أقوى من داعي من ليست كذلك، وكانت هي المطالبة، فتزول بذلك كُلْفةُ تعرُّض الرَّجل، وطلبه، وخوفه من عدم الإجابة، وزادت مع الطلب الرغبةُ التامَّةُ والمراودةُ التي يزولُ معها ظنُّ الامتحان والاختبار؛ ليعلم عفافه من

فجوره، وكانت في محل سُلطانها وبيتها، بحيث تعرف بحال وقت الإمكان ومكانه الذي لا تنالُه العيونُ، وزادت مع ذلك تغليق الأبواب؛ لتأمن هجوم الدَّاخل على بغتةٍ، وأتته بالرَّغبة، والرَّهبة، ومع هذا كلِّه فعفَّ لله، ولم يُطِعْها، وقدَّم حقَّ الله، وحقَّ سيدها على ذلك كلِّه، وهذا أمر لو ابْتُلِيَ به سواه؛ لم يُعْلَم كيف كانت تكون حالُه.

ولكن قال (وهمّ بها) فقالت المرأة: {وَلَئِنْ لَمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِنَ الصَّاغِرِينَ (٣٢) قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ} [يوسف/ ٣٢ ـ ٣٣] فاختار السِّجن على الفاحشة.

وكان فتًى من أهل المدينة يشهد الصلوات كلَّها مع عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ وكان عمر يتفقَّده إذا غاب، فعشقته امرأةٌ من أهل المدينة، فذكرت ذلك لبعض نسائها، فقالت: أنا أحتال لك في إدخاله

عليك، فقعدت له في الطريق، فلمَّا مرَّ بها قالت له: إنِّي امرأةٌ كبيرةُ السنِّ، ولي شاةٌ ولا أستطيع أن أحلبها، فلو دخلت، فحلبتها لي ـ وكانوا أرغب شيءٍ في الخير ـ فدخل، فلم يرَ شاةً، فقالت: اجلس حتى آتيك بها، فإذا المرأة قد طلعت، فلمَّا رأى ذلك، عمدَ إلى محراب في البيت، فقعد فيه، فأرادته عن نفسه، فأبى، وقال: اتقي اللهَ أيتها المرأة! فجعلت لا تكفُّ عنه، ولا تلتفت إلى قوله. فلما أبى عليها؛ صاحت عليه، فجاؤوا، فقالت: إنَّ هذا دخل عليَّ يريدني عن نفسي، فوثبوا عليه، وجعلوا يضربونه، وأوثقوه، فلمَّا صلَّى عمر الغداة فقده، فبينا هو كذلك؛ إذ جاؤوا به في وثاق، فلمَّا رآه عمر قال: اللهَم لا تُخلف ظنِّي به. قال: ما لكم؟ قالوا: استغاثت امرأةٌ بالليل، فجئنا، فوجدنا هذا الغلام عندها فضربناه، وأوثقناه! فقال له عمر ـ رضي الله عنه ـ: اصدقني! فأخبره بالقصَّة على وجهها. فقال له عمر ـ رضي الله عنه ـ : أتعرف العجوز؟ فقال: نعم، إن رأيتُها عرفتُها، فأرسل عمر إلى نساء جيرانها، وعجائزهنَّ، فجاء بهنَّ،

فعرضهنَّ، فلم يعرفها فيهنَّ، حتى مرَّت به العجوز، فقال: هذه يا أمير المؤمنين! فرفع عمر عليها الدِّرَّةَ، وقال: اصدُقيني، فقصَّت عليه القصَّة، كما قصَّها الفتى، فقال عمر: الحمدُ لله الَّذي جعل فينا شبيه يوسف.[96]

وقد ضربتْ النّساء أيضا مثالا في العفاف مما يتعجّب منه السّامع

مرَّ رجل براهبةٍ من أجمل النساء، فافتُتن بها، فتلطَّف في الصُّعود إليها، فراودها عن نفسها، فأبت عليه، وقالت: لا تغترَّ بما ترى، فليس وراءه شيء، فأبى حتى غلبها على نفسها، وكان إلى جانبها مجمرة، فوضعت يدها فيها، حتى احترقت، فقال لها بعد أن قضى حاجته منها: ما دعاك إلى ما صنعت؟ قالت: إنَّك لمَّا قهرتني على نفسي؛ خفت أن أشاركك في اللَّذة، فأشاركك في المعصية، ففعلت ما رأيت! فقال الرجل: والله لا أعصي اللهَ أبدًا! وتاب مما كان عليه.

[96] هذه والقصص التالية من روضة المحبين، ابن القيم

وقد خرج بعض الملوك يتصيدُ، وانفرد عن أصحابه، فمرَّ بقريةٍ، فرأى امرأةً جميلة، فراودها عن نفسها، فقالت: إنِّي غيْرُ طاهر، فأتطهَّر، وآتيك، فدخلت بيتها، وخرجت إليه بكتاب، فقالت: انظر في هذا حتَّى آتيك، فنظر فيه، فإذا فيه ما أعدَّ الله للزَّاني من العقوبة، فتركها، وذهب، فلمَّا جاء زوجُها، أخبرته الخبر، فكره أن يقربَها مخافةَ أن يكون للملك فيها حاجةٌ، فاعتزلها، فاستعدى عليه أهل الزوجة إلى الملك، وقالوا: إنَّ لنا أرضًا في يد هذا الرجل، فلا هو يعمرُها، ولا هو يردُّها علينا، وقد عطَّلها! فقال الملك: ما تقول؟ فقال: إنِّي رأيت في هذه الأرض أسدًا، وأنا أتخوَّف دخولَها منه! ففهم الملك القصَّة، فقال: اعمر أرضك، فإنَّ الأسد لا يدخلها، ونعم الأرض أرضُك!

وكانت بعض النساء المتعبِّدات وقعت في نفس رجل موسر، وكانت جميلةً، وكانت تُخْطَب فتأبى، فبلغ الرَّجل أنَّها تريد الحجَّ، فاشترى ثلاثمائة بعيرٍ، ونادى: من أراد الحج، فليكتر من فلان، فاكترت منه المرأة، فلمَّا كان في بعض الطريق، جاءها، فقال: إمَّا أن تزوجيني نفسك، وإمَّا غير ذلك! فقالت: ويحك، اتقِ اللهَ! فقال: ما هو إلَّا ما تسمعين، والله ما أنا بمجَّالٍ! ولا خرجت إلَّا من أجلك. فلمَّا خافت على نفسها قالت: ويحك! انظر أبقيَ في الرِّجال عينٌ لم تنم؟ فقال: لا، ناموا كلُّهم، قالت: أفنامت عينُ ربِّ العالمين؟ ثمَّ شهقت شهقةً خرَّت ميتةً، وخرَّ الرجلُ مغشيًّا عليه. فلمَّا أفاق، قال: ويحي! قتلت نفسًا، ولم أبلغ شهوتي.

وأحبَّ رجل جاريةً من العرب، وكانت ذات عقل وأدب، فما زال يحتال في أمرها حتَّى اجتمع معها في ليلةٍ مظلمة شديدة السَّواد، فحادثها ساعة، ثمَّ دعته نفسه إليها، فقال: يا هذه! قد طال شوقي إليك! قالت: وأنا

كذلك! فقال: هذا الليل قد ذهب، والصُّبح قد اقترب، قالت: هكذا تفنى الشهوات، وتنقطع اللَّذَّات! فقال: فما لو دنوتِ منِّي، فقالت: هيهات! أخاف البعد من الله. قال: فما الَّذي دعاك إلى الحضور معي؟ قالت: شِقوتي، وبلائي! قال: فمتى أراك؟ قالت: ما أنساك! وأمَّا الاجتماع معك فما أراه يكون. ثمَّ تولَّت. قال: فاستحييت ممَّا سمعت منها، وأنشد:

توقَّت عذابًا لا يطاق انتقامه ... ولم تأت ما تخشى به أن تُعذَّبا

وقالت مقالًا كدتُ من شدَّة الحيَا ... أهيمُ على وجهي حيًا وتعجُّبا

ألا أُفِّ للحبِّ الذي يورث العَمَى ... ويورد نارًا لا تملُّ التَّلهُّبا

فأقبل عودي فوق بدئي مفكِّرًا ... وقد زال عن قلبي العمى فتسرَّبا

آرثر:

أين نحن منهم؟!!

الأرض:

اعلموا أنَّ من ترك لله شيئًا، عوَّضه اللهُ خيرًا منه، وأنَّ من آثر الألم العاجل على الوصال الحرام، أعقبه اللهُ ذلك في الدنيا المسرَّة التامَّة، وإن هلك، فالفوز العظيم، والله تعالى لا يُضيِّع ما يتحمل عبده لأجله.

كما ترك يوسف الصِّديقُ ـ عليه السلام ـ امرأة العزيز لله، واختارَ السِّجن على الفاحشة، فعوَّضه اللهُ: أن مكَّنه في الأرض يتبوأ منها حيث يشاء، وأتته المرأة صاغرةً، سائلةً، راغبةً في الوصل الحلال، فتزوَّجها، فلمَّا دخل بها قال: هذا خيرٌ ممَّا كنتِ تريدين.

وتأمَّل كيف جزاه الله ـ سبحانه ـ على ضيق السجن: أن مكَّنه في الأرض ينزل منها حيث يشاء، وأذلَّ له العزيز، وامرأته، وأقرَّت المرأة والنِّسوة ببراءته، وهذه سُنَّته تعالى في عباده قديمًا وحديثًا إلى يوم القيامة.

قال تعالى: {وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا (٢) وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ} [الطلاق: ٢ ـ ٣] فأخبر ـ سبحانه وتعالى ـ: أنَّه إذا اتقاه بترك ما لا يحلُّ له؛ رزقه من حيث لا يحتسب، وكذلك الزاني لو ترك ركوبَ ذلك الفرج حرامًا لله؛ لأثابه الله بركوبه، أو ركوب ما هو خيرٌ منه حلالًا.

وخرج رجلٌ من الحي حاجًّا، فورد بعض المياه ليلًا، فإذا هو بامرأةٍ ناشرةٍ شعرها، فأعرض عنها، فقالت له: هلمَّ إليَّ، فلم تعرض عني؟ فقال: إني أخاف اللهَ رب العالمين! فتجلببت ثم قالت: هبتَ والله مَهابًا، إنَّ أولى من شركك في الهيبة لمن أراد أن يشاركك في المعصية! ثم ولَّت، فتبعها، فدخلت بعض خيام الأعراب، قال: فلمَّا أصبحتُ؛ أتيت رجلًا من القوم، فسألته عنها، وقلت: فتاةٌ صفتُها كذا وكذا، فقال: هي والله ابنتي! فقلت: هل أنت مُزوِّجي بها؟ قال: على الأكفاء، فمن أنت؟ فقلت: رجلٌ

من تيم الله، قال: كُفؤٌ كريمٌ، فما رِمْتُ حتى تزوَّجتها، ودخلتُ بها، ثمَّ قلت: جهزوها إلى قدومي من الحجِّ، فلمَّا قدمنا حملتها إلى الكوفة، وهاهي ذي عندي، ولي منها بنون وبناتٌ. قال: فقلت: ويحك ما كان تعرُّضُك لي حينئذٍ؟! قالت: يا هذا ما للنساء خيرٌ من الأزواج، فلا تعجبنَّ من امرأةٍ تقول: هويتُ، فوالله لو كان عند بعض السُّودان ما تريد من هواها، لكان هو هواها!

وكان قصَّابٌ قد وَلِع بجاريةٍ لبعض جيرانه، فأرسلها أهلُها إلى حاجة في قرية أخرى، فتبعها، فراودها عن نفسها، فقالت: لا تفعل! لأنَا أشدُّ حبًّا لك منِّي، ولكنِّي أخاف اللهَ! قال: فأنت تخافينه، وأنا لا أخافه؟! فرجع تائبًا، فأصابه العطش حتى كاد ينقطع عنقُه، فإذا هو برسولٍ لبني إسرائيل، فسأله، فقال: ما لك؟ قال: العطش، فقال: تعال حتى ندعوَ اللهَ حتى تظلَّنا سحابةٌ حتَّى ندخل القرية! قال: ما لي من عملٍ، فأدعوه، قال:

فأنا أدعوه، وأمِّن أنت، فدعا، وأمَّن الرَّجل، فأظلتهما سحابةٌ حتى انتهيا إلى القرية، فذهب القصَّاب إلى مكانه، فرجعت السَّحابة معه، فرجع إليه الرسولُ، فقال: زعمت أن ليس لك عملٌ، وأنا الذي دعوتُ، وأنت أمَّنت، فأظلتنا سحابةٌ، ثمَّ تبعتك، لتُخْبرنِّي ما أمرُك؟! فأخبره، فقال الرسول: إنَّ التَّائب إلى الله بمكانٍ ليس أحدٌ من الناس بمكانه.

آرثر:

ما هذا النظام العجيب الحكيم!! حقا يحثّ على التخلّق بالفضائل واجتناب الرذائل!

ليو:

نعم... هذا من رحمة اللهِ بنا

الأرض:

فمن علت همته، وخشعت نفسه اتصف بكل خلق جميل، ومن دنت همته، وطغت نفسه اتصف بكل خلق رذيل. فالنفوس الشريفة لا ترضى من الأشياء إلا بأعلاها، وأفضلها، وأحمدها عاقبة. والنفوس الدنيئة تحوم حول الدناءات، وتقع عليها كما يقع الذباب على الأقذار؛ فالنفوس العليّة لا ترضى بالظلم، ولا بالفواحش، ولا بالسرقة، ولا بالخيانة؛ لأنها أكبر من ذلك وأجَلّ. والنفوس المهينة الحقيرة الخسيسة بالضد من ذلك. فإذا توفر المرء على اقتناء الفضائل، وألزم نفسه على التخلق بالمحاسن، ولم يرض من منقبة إلا بأعلاها، ولم يقف عند فضيلة إلا وطلب الزيادة عليها، واجتهد فيما يحسن سياسة نفسه عاجلا، ويبقي لها الذكر الجميل آجلا، لم يلبث أن يبلغ الغاية من التمام، ويرتقي إلى النهاية من الكمال، **فيحوز**

السعادة الإنسانية، والرئاسة الحقيقية، ويبقى له حسن الثناء مؤبدا، وجميل الذكر مخلّدا.[97]

الأولاد:

حقا تقولين

الأرض

وهناك خُلق آخر يدل على رحمة اللهِ بالإنسان وتكريمه ليُجنّبه الرذائل. هذا الخُلق هو الحياء... الخُلق الذي خُصَّ به الإنسانُ دون جميع الحيوان، وهو مِنْ أفضل الأخلاق وأجلِّها، وأعظمها قدرًا، وأكثرها نفعًا، بل هو خاصَّةُ الإنسانيَّة، فمن لا حياء فيه ليس معه من الإنسانيَّة إلا اللحمُ والدَّمُ وصورتهما الظَّاهرة، كما أنه ليس معه من الخير شيء.

---

[97] ابن القيم

ولولا هذا الخُلقُ لم يُقْرَ الضيف، ولم يُوفَ بالوعد، ولم تؤدَّ أمانة، ولم تُقْض لأحدٍ حاجة، ولا تحرَّى الرجلُ الجميلَ فآثره والقبيحَ فتنكَّبه، ولا سَتَر له عورةً، ولا امتنع من فاحشة.

وكثيرٌ من النَّاس لولا الحياءُ الذي فيه لم يؤدِّ شيئًا من الأمور المفتَرضة عليه، ولم يَرْع لمخلوقٍ حقًّا، ولم يَصِل له رَحِمًا، ولا برَّ له والدًا؛ فإنَّ الباعث على هذه الأفعال إمَّا دينيٌّ ـ وهو رجاءُ عاقبتها الحميدة ـ، وإمَّا دنيويٌّ عاديٌّ ـ وهو حياءُ فاعلها من الخلق ـ؛ فقد تبيَّن أنه لولا الحياءُ إمَّا من الخالق أو من الخلائق لم يفعلها صاحبُها.

وقال ﷺ: «إذا لم تستَحِ فاصنع ما شئت».

يبدو أنّ هذا الكلام صورتُه صورةُ الطَّلب، ومعناه معنى الخبر، وهو في قوَّة قولهم: «من لا يستحي صَنَعَ ما يشتهي»؛ فليس بإذنٍ ولا هو مجرَّد تهديد، وإنما هو في معنى الخبر، والمعنى: أنَّ **الرَّادع عن القبيح إنما هو الحياء**، فمن لم يَسْتح فإنه يصنعُ ما شاء.

وأخرجَ هذا المعنى في صيغة الطَّلب لنكتةٍ بديعةٍ جدًّا، وهي أنَّ للإنسان آمِرَين وزاجِرَين: فله آمرٌ وزاجرٌ من جهة الحياء، فإذا أطاعه امتنع من فعل كلِّ ما يشتهي، وله آمرٌ وزاجرٌ من جهة الهوى والشهوة والطَّبيعة، فمن لم يُطِع آمِرَ الحياء وزاجِرَه أطاع آمِرَ الهوى والشهوة ولا بدَّ؛ فإخراجُ

الكلام في قالب الطَّلب يتضمَّنُ هذا المعنى دون أن يقال: من لا يستحي يصنعُ ما يشتهي.

وقال النبي ﷺ : "الإيمانُ بِضعٌ وسَبعونَ -أو بِضعٌ وسِتُّونَ- شُعبةً، فأفضَلُها قَولُ لا إلهَ إلَّا اللهُ، وأدناها إماطةُ الأذى عن الطَّريقِ، والحياءُ شُعبةٌ مِنَ الإيمانِ"

إنَّما أفرد ﷺ هذه الخَصلةَ من خِصالِ الإيمانِ في هذا الحديثِ، وخَصَّها بالذِّكرِ دونَ غيرِها من باقي شُعَبِ الإيمانِ؛ لأنَّ الحَياءَ كالدَّاعي إلى باقي الشُّعَبِ؛ فإنَّ صاحِبَ الحَياءِ يخافُ فضيحةَ الدُّنيا والآخرةِ، فيأتَمِرُ وينزَجِرُ، فلمَّا كان الحَياءُ كالسَّبَبِ لفِعلِ باقي الشُّعَبِ خُصَّ بالذِّكرِ ولم يُذكَرْ غَيرُه معه.

ولهذا قال أيضا "الحَياءُ لا يأتي إلَّا بخيرٍ".[98]

وهذا سرّ آخر من أسرار الفطرة، ألا وأنّ **الفضائل تدعو صاحباتها من الفضال**، العفة تدعو الأمانة، والرحمة تدعو الإحسان، والسماحة تدعو الصدق والكرم، والعزة تدعو الشجاعة، والحياء يدعو لكل خير.

كذلك **الرذائل تدعو صاحباتها**، مثل الغش يدعو الكذب والمكر، والأنانية تدعو البخل والشح، والجبن يدعو التخاذل، والعجب يدعو

[98] مفتاح دار السعادة، ابن القيم

التعالم والكبر والتعصب، والحسد وهو من أخطرها يدعو الحقد والبغض والتجسس والغيبة والنميمة والعدوان والشماتة وكلّ شرّ.

فإن وقع في رذيلة، **جعل اللهُ في روحه شعورا يُشعره بالندم** وأنّ ما فعله مذموما... هذا الشعور هو الذي يُسمّى **بتأنيب الضمير**

فهذان الخلقان الحياء وتأنيب الضمير، هما **من أسباب استقرار الحياة على هذا العالم**، وإلا بدونهما لهلك الإنسان منذ قرون ولكان العالم غير هذا العالم. فمالذي يمنع الإنسان من ارتكاب جريمة سرا؟! ومن أن يسرق؟! ويغتصب؟ وما الذي جعله يندم ويتوب من رذيلة فعلها؟!

فسبحانه ما أرحمه وما ألطفه!! بالرغم أنّ الإنسان قد يكفر باللهِ وبدينه، لكن اللهَ -عز وجل- جعل فيه هذا النظام لحمايته.

الأولاد:

حقا ما أرحمه!

الأرض:

لم يكتف اللهُ -عز وجل- بذلك، إذ **جعل في الإنسان شعورا يُميّز به بين الفضيلة والرذيلة،** جاء رجلٌ للنبي -صلى الله عليه وسلم - يسأله، فقال له الرسول ﷺ : "جئتَ تسألُ عن البرِّ والإثمِ ؟ قال : نعم ، فقال : استَفْتِ قلبَك : **البِرُّ ما اطمأنَّتْ إليه النَّفسُ ، واطمأنَّ إليه القلبُ ، والإثمُ ما حاك في النَّفسِ وتردَّدَ في الصَّدرِ ، وإن أفتاك الناسُ وأَفْتَوْك**".[99]

مثل مُشاهدة الأفلام الإباحية، لا يُنكر أحد أنّ قلبه لا يطمئنّ لها، وهو شيء يفعله سرا بينه وبين نفسه، ومع ذلك يشعر بالذنب واحتقارٍ لنفسه، وإن كان ملحدا. أليس كذلك؟

آرثر:

بلى

---

[99] رواه أحمد

الأرض:
فهي إذا رذيلة ولا يليق بالمرء مشاهدتها، ولا يُقال تستطيع مشاهدتها بدون إفراط.

آرثر:
صحيح

الأرض:
فإذا كان مُجرّد مُشاهدة الأفلام الإباحية رذيلة، فما البال بفعل الزنا؟! فهو أعظم... وفيه من المفاسد ما لو عقله النّاسُ والمسؤولون، لمنعوه أشدّ الامتناع... فمنه فساد الأخلاق، إذ الرذائل تدعو أخواتها الرذائل كما مرّ بنا، فالفاحشة، تدعو الانحلال وعدم الحياء، وما ظنكم بقلب قد امتلئ رذائل؟... تضيع منه البصيرة ولو كانت العين تُبصر...
ومنه، وهذا خطير جدا، عدم الزواج، ومع عدم الزواج يعدم النّسل...

آرثر:
كيف؟ أعني، كيف يمنعها ذلك من عدم الزواج؟

الأرض:

لماذا سيحجّر الرجل أو المرأة على نفسها شخصا واحدا إذا كان بوسعها التمتع بعدد غير محدود وبأشكال وألوان مختلفة؟!!

آرثر:

كلامك حقا صحيح...

ولا أظنّ الفتاة ستُنجب حُباّ للبشرية! فالانجاب بالنسبة لها تعطيل لشهواتها... والرجل، لا أظنّه يريد أن يُنجب من فتيات مثلهنّ.

ثمّ طبيعة الانجاب تأبى مثل هذه الحياة، فكيف تُربّي الأمّ ابنها وهي لا تعرف ولا الولد يعرف أباه، ولا الأب يعرف ابنه... ثمّ من سيتحمّل الانفاق؟ حقاّ الفاحشة مخالفة تماما لطبيعة الحياة، بل تُفسده...

الأرض:

أحسنت يا بُني!

ثمّ لماذا يتحملون أعباء الزواج والنّفقة إذا كان التمتّع متاحا مجانا؟!!

آرثر:

صحيح...للأسف

الأرض:

أرأيتم خطورة هذه الفاحشة على البشرية، ليس فقط عليهما؟!!

بل حتى لو تزوّجت ولم تكن قد تابت توبة نصوحة، قد تستمر في ذلك، لأنّ قلبها قد غلظ ولن يتلذذ إلا بالخبيث. فتُهلك فراشها، وتخلط النّسل ويُنسب الولد لغير أبيه. قد أصبحت حقيقة عبدة لشهواتها. ولا يُنكر أحد جُرم فعلها، ولا يرضاه الرجل مهما كان ظالما ملحدا. بل قد يُؤدّي ذلك إلى التقاتل وسفك الدماء... هذا الجرم وحده كافيا لمنعه وبُغضه.

وقد مرّ بنا عند حديث المرأة ما نقلته عن العلم الحديث من مضرّته على البنت والمجتمع.

الأولاد:

حقا خطيرة...

الأرض:

ولن تجدوا في هذه الدنيا مثل دين الإسلام في تحقيق العدل فيها وفهمه العميق لها، فلا ريب، إذ هو من عند الخالق.

فلخطورة الفاحشة، حرّمه أشدّ التحريم، قال تعالى {وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَا ۖ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا} [الإسراء : 32]

وتأملوا قوله تعالى "لا تقربوا" ولم يقل "لا تفعلوا"، وهذا من دلائل القرآن على أنّه من عند الخالق، لأنّ الزّنا يسبقها أبواب، فأوّل الباب، النظر، فالنظر أصل عامة الحوادث التي تصيب الإنسان، فإن النظرة تولد الخطرة، ثم تولد الخطرة فكرة، ثم تولد الفكرة شهوة، ثم تولد الشهوة إرادة، ثم تقوى فتصير عزيمة جازمة، فيقع الفعل ولا بد ما لم يمنع مانع، ولهذا قيل: الصبر على غض البصر أيسر من الصبر على ألم ما بعده. والله عز وجل قال {قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ (30) وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ} [النور : 30-31]

الباب الثاني: الخلوة، أي خلوة الرجل مع امرأة أجنبية عنه، ليست أمه أو أخته أو عمته ولا خالته... فالخلوة بينهما حيث لا يراهم أحد قد يؤدي إلى الفاحشة. قال النبي ﷺ : "لَا يَخْلُوَنَّ رَجُلٌ بِامْرَأَةٍ إِلَّا وَمَعَهَا ذُو مَحْرَمٍ".[100]

[100] صحيح مسلم

الباب الثالث: اللباس، بطبيعة الحال، فما الذي يُحرّك الشهوة ؟! والبنات تعلم ذلك جيدا، وهو أمر لا يُنكره عاقل. فالشّخص الذي يدعو إلى تجنّب الفاحشة والمحافظة على المرأة والأسرة، إن لم يتكلم على اللباس المحتشم، فكأنه لم يفعل شيئا.

ألم يمر عليكم فعل البنات، عندما يخرجن مع صديقهن، وقد مرت بجانبهما فتاة لابسة كما تلبس هي، تنظر مباشرة إلى حبيبها لتتأكد هل نظر إليها أم لا... ولو نظر للامته... فكيف تلومه وهي أيضا تُفتن غيرها من الرجال، وكلٌ تلوم حبيبها... تناقضٌ مع الفطرة وإنكارٌ للواقع!!

أما الدّين الإسلامي، قطع ذلك النّزاع، وخلق جوّ السّكينة والحياء والاحترام في المجتمع... فلا رجل يلتفت إلى زوجة غيره، ولا امرأة تتعرّض إلى تحرّش... فتُحفظ البيوت، وتعم المحبة بين الزوجين، والاحترام بين الجارين.

ويرجع نظام الحياة إلى اعتداله، فيستمر النّسل، ويستمرّ العمل، وينمو الاقتصاد، وتزدهر البلاد.

آرثر:

كيف هو اللباس الذي يريده الله -عز وجل- ؟

الأرض:

أمر المرأةَ أن ترتدي الجلباب، وهو أن تُغطي سائر جسدها إلا وجهها وكفيها.

والرجل بستر عورته، فلا يلبس ما يُحدّد عورته.

قال تعالى {قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ (30) وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ۖ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ۖ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَىٰ عَوْرَاتِ النِّسَاءِ ۖ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ ۚ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (31)} [النور : 30-31]

ليو:

نعم، قد رأيتُ ذلك في بلادنا... بل عندما رأيتُ أختَ زميلي المسلم مُرتديته، شعرتُ بالسّكينة والاحترام تُجاهها حقا، لم أعرف سبب ذلك الإحساس...

الأرض:

إنّه فعل الفضائل، كما مرّ بنا، وأخت زميلك كانت من ذوات الحياء، **قد غُذّي قلبها بالفضائل، فظهر ذلك على ملبسها كما ظهر على وجهها من النور**، وهو من الأسرار الأخرى، ألا **وإنّ للفضائل تأثير عجيب في تنوير الوجه وسماحته، كذلك الرذائل لها تأثير عجيب في ظُلمة الوجه وسواده.**

واطمئنان قلبك عند رؤيتها، هو بسبب طيبة ونقاوة قلبك أنت أيضا، فقد قال النبي ﷺ : "الأَرْوَاحُ جُنُودٌ مُجَنَّدَةٌ، فَمَا تَعَارَفَ مِنْهَا ائْتَلَفَ، وما تَنَاكَرَ مِنْهَا اخْتَلَفَ"[101].

(احمّر وجه ليو)

آرثر (ضاحكا):

أو لعله يُحبّها! أقترح عليك يا ليو أن تطلب يدها من أخيها

ضحك الجميع

[101] صحيح البخاري

الأرض:

صحيح...**فإنّ التّناسُبَ الذي بين الأرواح من أقوى أسباب المحبَّة. فكلُّ امرئ يصبُو إلى مَنْ يُناسبُهْ.**

كما قيل:

محاسنُها هَيُولى كلِّ حسنٍ ... ومِغْنَاطيسُ أَفْئِدَةِ الرِّجال

وهذا الذي حَمَلَ بعضَ الناس على أن قال: إنَّ العشقَ لا يقفُ على الحُسْن والجمال، ولا يلزمُ من عَدَمِهِ عَدَمُه، وإنما هو تشاكُل النفوسِ وتمازُجُها في الطباع المخلوقة فيها، كما قيل:

وما الحُبُّ من حُسْنٍ ولا مِنْ مَلاحةٍ ... ولكنَّه شيءٌ به الرُّوح تَكْلَفُ[102]

يا أولاد!

[102] روضة المحبين، ابن القيم (بتصرف)

الأولاد:

نعم

الأرض:

أتدرون ماهو السرّ الآخر الذي جعله اللهُ فيكم ليحثّكم على الزواج والبقاء مع زوجك طيلة حياتكم؟

أوليفر:

أظنّك تقصدين الحبّ بما أننا نتكلّم عليه

آرثر:

لأنّه هو الذي حملك على الزواج بحبيبتك أميليا

الأرض:

نعم... الحب هو هذا الإحساس الجميل الذي يجعل الزّوج لا يرى أحلى ولا أجمل في عينيه من زوجته، كما قال الحجاج لعَزَّة لما دخلت عليه: يا عزَّةُ! والله ما أنتِ كما قال فيك كُثَيِّر، فقالت: أيُّها الأمير إنَّه لم يَرَني بالعين التي رأيتَني بها.

صدقَتْ، هذه عَيْنُ المُحبّ، نعم، فإنّ **الحُبّ له حلاوة ولذّة لا تُوصف.**

أليس كذلك يا أوليفر؟ قالت الأرض مبتسمة

أوليفر:

بلى، لا أرى نفسي أعيش بدونها

الأرض:

أدام الله محبتكم يا بُني!

فالفرق يا أبنائي، بين لذّة من يأتي امرأةً ليس بينه وبينها محبّة، وبين لذة من يأتي عشيقته. فرق كبير، فالأوّل قد يلتذ الجسم فقط، ولكن الثاني، يلتذ جسمه وروحه وقلبه... فهي أعلى وأتم. وهكذا تُدركون سبب اكتئاب كثير من البنات اللواتي رَفَضْنَ الحُبّ وجَرَيْن وراء اللذّة الجسمانية.

لكن أتدرون ما الأعجب؟!

الأولاد:
ماذا؟

الأرض:
كيف فطر الله -عز وجل- الإنسانَ على عدم الميل جِنسيا لأُمّه، أو أخته، أو عمّته، أو خالته...وإنّما هو حبٌّ عفيفٌ يُناسبه.
فاسألوا الملاحدة والنّسوية كيف كان هذا؟ أم هو أيضا من تأثير الدِّين والثقافة والمجتمع؟ أو استفراش الأم ونكاحها مُساوٍ عندهم لنكاح الأجنبية واستفراشها؟!!

أوليفر:
الكلام عنها فقط مُقزّز

الأرض:

عرفنا الآن سرّ الفطرة في الحثّ على الزواج، واللذة الحقيقية من ذلك التي لا تعقبها ألما. فاسمعوا الآن إلى قول الله تعالى في ذلك مما يدلّك على أنّه هو الخالق لها، قال تعالى {وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ} [الروم : 21]، وقال تعالى { الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ ۖ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ ۚ أُولَٰئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ ۖ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ} [النور : 26]

وتأملوا في قوله تعالى "لتسكنوا"، "مودّة" و"رحمة"... هذه الكلامات الثّلاث تحمل معاني ما قلناه إلى الآن... فعندما يأتي الزَّوجُ زوجَتَه،

تسكنُ شهوتَه، فتسكن بذلك نفسُه، فتطمئنّ وتفرح وتلتذّ لأنّها زوجته... وبما أنّه تزوّج طيّبة مثله، أَوْرث ذلك محبة ومودة ورحمة. وأمّا بين الطيّب والخبيث فإنّه مُمتنع شرعا وقدرا، فكيف تكون الخبيثة مودودة للطيب والعكس؟

وفي معاملة النبي ﷺ لزوجاته دليل آخر على ما قلنا من الفطرة أو تبيينا لهذه المعاني، فقد قال الله تعالى عنه {وَمَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ ۙ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ} [النحل : 64]

وقال تعالى {بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ ۗ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ} [النحل : 44]

وقال تعالى {لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا} [الأحزاب : 21]

وقال تعالى {وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ} [القلم : 4]

وما هذا إلاّ لعلمه تعالى لما ستُحدِثُه البشريّة من انتكاس، بالرغّم من قوّة فطرتهم.

فكيف كانت مُعاملته ومُعاشرته ﷺ يا تُرى؟ لننظر

سأل أحد أصحابه فقال: "يا رسول الله! من أحب الناس إليك؟ قال: عائشة، قال: من الرجال؟ قال: أبوها"[103].

وقالت عائشة رضي الله عنها: كنتُ أتَعرقُ العظم (آكل منه بأسناني) وأنا حائض وأعطيه النبي ﷺ فيضع فَمَهُ في الموضع الذي فيه وَضعتُهُ، وأشرب الشراب فأنَاوِلَهُ، فيضع فمه فِي الموضع الذي كنتُ أشرب منه.[104]

وقالت: "كنت أغتسل أنا ورسول الله ﷺ من إناء بيني وبينه، فيبادرني حتى أقول: دعْ (أترك) لي، دع لي".[105]

---

[103] صحيح البخاري ومسلم
[104] صحيح مسلم
[105] صحيح مسلم

وقالت -رضي الله- عنها أنها كانت مع النبي ﷺ في سفر وهي جارية، فقال لأصحابه: "تقدموا، فتقدموا، ثم قال: تعالي أسابقك، فسابقته، فسبقته على رجلي، فلما كان بعد خرجت معه في سفر فقال لأصحابه: تقدموا، ثم قال: تعالي أسابقك، ونسيت الذي كان، وقد حملت اللحم (زاد وزني) فقلت: كيف أسابقك يا رسول الله وأنا على هذه الحال؟! فقال: لتفعلن، فسابقته فسبقني، فقال: هذه بتلك السبقة"[106]

وقالت:"خرجنا مع رسول الله ﷺ في بعض أسفاره، حتى إذا كنا بالبيداء (موضعٌ بين مكةً والمدينة)، أو بذات الجيش، انقطع عقد لي، فأقام رسول الله ﷺ على التماسه، وأقام الناس معه"[107]

[106] صحيح أبي داود، الألباني
[107] صحيح البخاري

ولما رجع النبي ﷺ من غزوة خيبر وتزوج صفية بنت حيي -رضِيَ الله عنها- كان يدير كساء حول البعير الذي تركبه يسترها به، ثم يجلس عند بعيره فيضع ركبته فتضع صفية -رضي الله عنها- رجلها على ركبته حتى تركب.[108]

أمّ زوجته الأولى، خديجة -رضي الله عنها- لم يتزوج عليها في حياتها، **وكان يُحبّها حبا شديدا.**

فلما رأت أم المؤمنين عائشة -رضي الله- عنها أنه ﷺ يُكْثِر من ذكر خديجة -رضي الله- عنها، قالت: "ما غِرْتُ على امرأة للنبي ﷺ ما غِرْتُ على خديجة، هلَكَتْ (ماتت) قبل أن يتزوَّجني، لِما كنتُ أسمعه يذكرها" وقالت عائشة -رضي الله- عنها: "كأنه لم يكن في الدنيا امرأة إلا خديجة)، فكان ﷺ يرد بقوله: "إنها كانت وكانت، وكان لي منها ولد"[109]

---

[108] صحيح البخاري
[109] متفق عليه

وقالت -رضي الله عنها-: "كان النَّبيُّ ﷺ إذا ذكَرَ خَديجةَ أَثْنى عليها، فأحسَنَ الثناءَ، قالت: فغِرْتُ يومًا، فقُلْتُ: ما أكثرَ ما تذكُرُها حَمراءَ الشِّدْقِ، قد أبدَلَكَ الله -عزَّ وجلَّ- بها خَيرًا منها، قال: ما أبدَلَني الله -عزَّ وجلَّ- خَيرًا منها، قد آمَنَتْ بي إذ كفَرَ بي الناسُ، وصدَّقَتْني إذ كذَّبَني الناسُ، وواسَتْني بمالِها إذ حرَمَني الناسُ، ورزَقَني الله -عزَّ وجلَّ- ولَدَها إذ حرَمَني أولادَ النِّساءِ"[110]

ومن وفائه ﷺ لخديجة، أنّه **كان يكرم صديقاتها** -رضي الله عنها- بعد موتها، فعن عائشة -رضي الله عنها- قالت: "وإن كان ليذبح الشاة فيهدي في خلائلها (صديقاتها) منها ما يسعهن"[111]

---

[110] رواه أحمد
[111] صحيح البخاري

وكان ﷺ إذا أتي بالشيء يقول: اذهبوا به إلى فلانة، فإنها كانت صديقة خديجة، اذهبوا به إلى بيت فلانة، فإنها كانت تحب خديجة.[112]

وقالت عائشة -رضي الله عنها- : "جاءت عجوزٌ إلى النبيِّ ﷺ وهو عندي، فقال لها رسول الله ﷺ : من أنتِ؟ قالت: أنا جثَّامةُ المُزنيَّة، فقال: بل أنتِ حسَّانةُ المُزنيَّة، كيف أنتُم؟ كيف حالكم؟ كيف كنتُم بعدنا؟ قالت: بخيرٍ بأبي أنت وأمِّي يا رسول الله، فلما خرجت قلتُ: يا رسول الله تُقبِلْ على هذه العجوز هذا الإقبال؟! فقال: إنها كانت تأتينا زمن خديجة، وإنَّ حُسْن العهد من الإيمان"[113]

فهذا النبي ﷺ، **أشرف الخلق وأعظمهم رُجولة**، وهذا حبّه لزوجاته، لم ينقصه ذلك من مكانته ولا من رجولته، بل هي من مُوجبتها... بل كان

---

[112] رواه الحاكم
[113] رواه الحاكم

كما قالت عائشة -رضي الله عنها- عندما سُئلت ما كان النبي ﷺ يصنع في بيته؟ قالت: "كان في مهنة أهله، فإذا حضرتِ الصلاة قام إلى الصلاة"[114]، وقالت : "كان يَخيط ثوبه، ويخصِفُ نعله، ويعمل ما يعمل الرجال في بيوتهم"[115]

نعم، فهو الذي قال : "خَيرُكم خَيرُكم لأهلِه، وأنا خَيرُكم لأهلي"[116] وأوصى أمَّتَه بذلك "اسْتَوْصُوا بالنِّساءِ، فإنَّ المَرْأَةَ خُلِقَتْ مِن ضِلَعٍ، وإنَّ أعْوَجَ شَيءٍ في الضِّلَعِ أعْلاهُ، فإنْ ذَهَبْتَ تُقِيمُهُ كَسَرْتَهُ، وإنْ تَرَكْتَهُ لَمْ يَزَلْ أعْوَجَ، فاسْتَوْصُوا بالنِّساءِ"[117]

وتنبهوا لقوله "خلقت من ضلع..."، فإنه تفسير لطبيعتها، وقد راعى الدّين ذلك، فلما كانت نُفوسُهنّ ضعيفة، ولا تنقاد إلى أسباب اللذة العظمى

---

[114] صحيح البخاري
[115] صحيح ابن حبان، الألباني
[116] صحيح الترمذي
[117] صحيح البخاري

من عبادة الله -عز وجل- وطاعته إلَاّ بإعطائها شيئًا من لذّة اللهَو واللَّعب، بحيث لو فطمتْ عنه كل الفطام طلبت ما هو شرٌّ لها منه، رخِّص لها من ذلك ما لم يُرخَّصْ فيه لغيرها، وهذا كما دخل عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- على النبي ﷺ وعنده جَوارٍ يَضربْنَ بالدُّفِّ، فأسكتهنَّ لدخوله، وقال: «هذا رجُلٌ لا يُحِبُّ الْباطِل» فأخبر: أنَّ ذلك باطل، ولم يمنعهنَّ منه؛ لما يترتب لهن عليه من المصلحة الراجحة، ويترُكنَ به مفسدةً أرجح من مفسدته، وأيضًا: فيحصلُ لهم من التَّألُّم بتركه مفسدةٌ هي أعظم من مفسدته، فتمكينُهم من ذلك من باب الرَّحمة، والشَّفقة، والإحسان، كما مكَّن النَّبيُّ ﷺ أبا عُمَيرٍ من اللعب بالعصفور بحضرته، ومكَّنَ الجاريتين من الغناء بحضرته، ومكَّن عائشة -رضي الله عنها- من النظر إلى الحَبَشة وهم يلعبون في المسجد، ومكَّن تلك المرأة أن تضربَ على رأسه بالدُّف، ونظائر ذلك.

ويُظهر أيضا سرّ تعلّقها، إذ كانت مخلوقة من ضلع الرّجل.

أوليفر:

مدهش حقا!...

الأرض:

وقد قسّم الله -عز وجل- عمل كلّ منهما بما يُوافق طبيعته... فقال تعالى

{الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَا أَنفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ ۚ } [النساء : 34]

وقال النبي ﷺ "كُلُّكُمْ راعٍ وكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عن رَعِيَّتِهِ، والأمِيرُ راعٍ، والرَّجُلُ راعٍ علَى أهْلِ بَيْتِهِ، والمَرْأَةُ راعِيَةٌ علَى بَيْتِ زَوْجِها ووَلَدِهِ، فَكُلُّكُمْ راعٍ وكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عن رَعِيَّتِهِ."[118]

[118] صحيح البخاري

و قال النبي ﷺ : "مَنْ قُتِلَ دُونَ مالِهِ فهوَ شَهيدٌ. ومَنْ قُتِلَ دُونَ دِينِهِ فهوَ شَهيدٌ. ومَنْ قُتِلَ دُونَ دَمِهِ فهوَ شَهيدٌ، ومَنْ قُتِلَ دُونَ أهلِهِ فهوَ شَهيدٌ "[119]

فالرجل هو ربّ البيت وقائده، المُنفق عليه، الحامي له.

أمّا المرأة، فمسؤولة بعمل البيت وشؤونه، من تربية الأولاد، من الانجاب والإرضاع إلى النّشأة، ومن نظافة البيت، وطبخ...

هذا هو أصل الأسرة السليمة... ولا تحقرنّ عمل المرأة في بيتها، ولا تربية أولادها، فهو أشرف عمل لها...

فالمرأة الأمّ، هي أوّل مدرسة، كما قال الشاعر:

الأم مدرسة إذا أعددتها أعددت شعبا طيب الأعراق

انظروا مصداق قوله... كيف أنشأت رجالا عظماء نبلاء:

---

[119] صحيح النسائي، الألباني

هند أم معاوية بن أبي سفيان، اسمعوا لعُلو همّتها في تربية ابنها:

رَأَى بَعْضُ مُتَفَرِّسِي الْعَرَبِ مُعَاوِيَةَ وَهُوَ صَبِيٌّ صَغِيرٌ، فَقَالَ: إِنِّي لَأَظُنُّ هَذَا الْغُلَامَ سَيَسُودُ قَوْمَهُ. فَقَالَتْ هِنْدُ: ثَكِلْتُهُ إِنْ كَانَ لَا يَسُودُ إِلَّا قَوْمَهُ.[120]

أم ربيعة الرأي

أم "ربيعة الرأي" ، شيخ الإمام مالك، حيث خرج زوجها فرُّوخ في البعوث إلى خراسان أيام بنى أمية، وترك ربيعة حملاً في بطنها، وخلف عندها ثلاثين ألف دينار. قدم المدينة بعد سبع وعشرين سنة، فدخل فروخ المنزل وقال: هذا ابني فقالت: نعم، قال: أخرجي المال الذي لي عندك وهذه معي أربعة آلاف دينار، قالت: قد دفنته وأنا أخرجه بعد أيام، ثم خرج ربيعة إلى المسجد وجلس في حلقته، فأتاه مالك والحسن بن زيد وابن أبي علي اللهبي والمساحقي وأشراف أهل المدينة وأحدق

[120] البداية والنهاية، ابن كثير

الناس به، فقالت امرأته لزوجها فروخ: اخرج فصل في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم. فخرج فنظر إلى حلقة وافرة فأتاها فوقف عليها، فأخرجوا له قليلاً فنكس ربيعة رأسه يوهمه أنه يره، وعليه دنية طويلة، فشك أبوه فيه، فقال: من هذا الرجل؟ فقالوا: هذا ربيعة بن أبي عبد الرحمن، فقال: فقد رفع الله ابني، ورجع إلى منزله، وقال لوالدته: لقد رأيت ولدك على حالة ما رأيت أحداً من أهل العلم والفقه عليها، فقالت أمه: فأيما أحب إليك ثلاثون ألف دينار أو هذا الذي هو فيه؟ فقال: لا والله بل هذا، فقالت: فإني أنفقت المال كله عليه، قال: **فو الله ما ضيعته.**[121]

أم سفيان الثوري

[121] وفيات الأعيان، ابن خلكان

قالت أم سفيان الثوري لسفيان: "يا بني اطلب العلم وأنا أكفيك يمغزلي", وقالت له: "يا بني إذا كتبت عشرة أحرف فانظر هل ترى نفسك زيادة في مشيك وحلمك ووقارك فإن لم يزدك فاعلم أنه لا يضرك ولا ينفعك".[122]

فصار سفيان من سادة الأئمة.

أم الإمام مالك

قال مالك: قلت لأمي: أذهَب فأكتب العلم، فقالت: تعالَ فالْبَس ثياب العلم، فألبَستنى ثيابًا مشمرَّة ووضعت الطويلة على رأسى، وعممتني فوقها؛ ثم قالت: اذهب فاكتب الآن.

وقال : كانت أمي تعَمّمنى وتقول لي : اذهب إلى ربيعة فتعلَّم من أدبه قبل عِلمه.[123]

أم الأقوص

[122] صفة الصفوة، لبن الجوزي
[123] ترتيب المدارك وتقريب المسالك، القاضي عياض

كان الأوقص قصيرًا دميمًا قبيحًا، قال: فقالت له أمه وكانت عاقلة: "يا بني، إنك خُلِقْتَ خِلقة لا تصلح معها لمعاشرة الفتيان، فعليك بالدِّين؛ فإنه يُتِمُّ النقيصةَ، ويرفع الخسيسة". قال الأقوص : فنفعني الله بقولها، فتعلمت الفقه، فصرت قاضيًا.[124]

لهذا استحقت الأمّ ذلك البرّ العظيم من ولدها، وقدّمها ربُّنا -عز وجل- على الأب...

ولا يمنع ذلك تعلّمها العلم، فقد كانت من أفقه هذه الأمّة، عائشة زوج النبي ﷺ -رضي الله عنها-.

وقد جَاءَتِ امْرَأَةٌ إلى رَسُولِ اللهِ ﷺ فَقالَتْ: يا رَسُولَ اللهِ، ذَهَبَ الرِّجَالُ بحَدِيثِكَ، فَاجْعَلْ لَنَا مِن نَفْسِكَ يَوْمًا نَأْتِيكَ فِيهِ، تُعَلِّمُنَا ممَّا عَلَّمَكَ

[124] الفقيه والمتفقه، الخطيب البغدادي

اللَّهُ، قالَ: اجْتَمِعْنَ يَومَ كَذَا وَكَذَا فَاجْتَمَعْنَ، فأتَاهُنَّ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَعَلَّمَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَهُ اللهُ.[125]

وقد ترجم الدكتور محمد أكرم الندوي لأكثر من تسع آلاف امرأة عالمة وطالبة للعلم في كتابه "الوفاء بأسماء النساء".

وقال المؤرخ ابن كثير: "وفي أوّل شهر جمادى الأولى توفيت الشيخة العابدة الصالحة العالمة قارئة القرآن أم فاطمة عائشة بنت إبراهيم بن صديق زوج شيخنا الحافظ جمال الدين المزي عشية يوم الثلاثاء مستهل هذا الشهر، وصلّي عليها بالجامع صبيحة يوم الأربعاء ودفنت بمقابر الصوفية غربي قبر الشيخ تقي الدين بن تيمية. كانت عديمة النّظير في نساء زمانها لكثرة عبادتها وتلاوتها وإقرائها القرآن العظيم بفصاحة وبلاغة وأداء صحيح، يعجز كثير من الرجال عن تجويده، وختمت نساءً كثيرًا،

[125] صحيح البخاري ومسلم

وقرأ عليها من النساء خلق وانتفعنَ بها وبصلاحها ودينها وزهدها في الدنيا، وتقللها منها، مع طول العمر بلغت ثمانين سنة أنفقتها في طاعة الله صلاة وتلاوة، وكان الشيخ محسناً إليها مطيعًا، لا يكاد يخالفها لحبه لها طبعًا وشرعًا، فرحمها الله وقدّس روحها، ونوّر مضجعها بالرحمة آمين."

وقال عن أمّ زينب فاطمة بنت العباس: "وفي يوم عرفة توفيت الشيخة الصالحة العابدة الناسكة أم زينب فاطمة بنت عباس بن أبي الفتح بن محمد البغدادية ، بظاهر القاهرة ، وشهدها خلق كثير ، وكانت من العالمات الفاضلات ، تأمر بالمعروف ، وتنهى عن المنكر ، وتقوم على الأحمدية في مؤاخاتهم النساء والمردان ، وتنكر أحوالهم وأحوال أهل البدع وغيرهم ، وتفعل من ذلك ما لا يقدر عليه الرجال ، وقد كانت تحضر مجلس الشيخ تقي الدين ابن تيمية ، فاستفادت منه ذلك وغيره ، وقد سمعت الشيخ تقي الدين يثني عليها ، ويصفها بالفضيلة والعلم ، ويذكر عنها أنها كانت تستحضر كثيرا من " المغني " أو أكثره ، وأنه كان يستعد

لها من كثرة مسائلها ، وحسن سؤالاتها ، وسرعة فهمها ، وهي التي ختمت نساء كثيرا القرآن ، منهن أم زوجتي عائشة بنت صديق ، زوجة الشيخ جمال الدين المزي ، وهي التي أقرأت ابنتها زوجتي أمة الرحيم زينب ، **رحمهن الله ، وأكرمهن برحمته وجنته ، آمين .**"[126]

وقال المؤرخ الذهبي عن **ستيتة بنت القاضي الحسين المحاملي** : "بنت المحاملي، **العالمة الفقيهة المفتية** أمة الواحد بنت الحسين بن إسماعيل . تفقهت بأبيها ، وروت عنه ، وعن إسماعيل الوراق ، وعبد الغافر الحمصي ، وحفظت القرآن والفقه للشافعي ، وأتقنت الفرائض ، ومسائل الدور والعربية ، وغير ذلك ، واسمها ستيتة .

قال البرقاني : كانت تفتي مع أبي علي بن أبي هريرة .

وقال غيره : **كانت من أحفظ الناس للفقه .**"[127]

---

[126] البداية والنهاية
[127] سير أعلام النبلاء

فكما تسمعون ثناء الرجال وتقديرهم لهنّ، فلم يكن في الإسلام وأهله، تحقير المرأة أو منعها من التعلّم، بل يستفيدون منهنّ ويطلبون منهنّ الدعاء، كما طلبا الإمامان الكبيران أحمد بن حنبل وبشر بن الحارث الدعاء من آمنة الرملية، يعني أنّهما يريا آمنة أفضل منهما. فقد قال جَعْفَرُ بْنُ مُحَمَّدٍ صَاحِبُ بِشْرٍ: اعْتَلَّ بِشْرُ بْنُ الْحَارِثِ فَعَادَتْهُ آمِنَةُ الرَّمْلِيَّةُ مِنْ الرَّمْلَةِ فَإِنَّهَا لَعِنْدَهُ إِذْ دَخَلَ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ يَعُودُهُ فَقَالَ مَنْ هَذِهِ؟ فَقَالَ: هَذِهِ آمِنَةُ الرَّمْلِيَّةُ بَلَغَهَا عِلَّتِي فَجَاءَتْ مِنْ الرَّمْلَةِ تَعُودُنِي، فَقَالَ: فَسَلْهَا تَدْعُو لَنَا.

فَقَالَتْ: اللَّهُمَّ إِنَّ بِشْرَ بْنَ الْحَارِثِ وَأَحْمَدَ بْنَ حَنْبَلٍ يَسْتَجِيرَانِكَ مِنْ النَّارِ فَأَجِرْهُمَا قَالَ أَحْمَدُ: فَانْصَرَفْت فَلَمَّا كَانَ فِي اللَّيْلِ طُرِحَتْ إِلَيَّ رُقْعَةٌ فِيهَا مَكْتُوبٌ: بِاسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، قَدْ فَعَلْنَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ.

وَقَالَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ أحمد بن حنبل: جَاءَتْنِي امْرَأَةٌ مِنْ هَؤُلَاءِ الْمُتَعَبِّدَاتِ فَأَخْبَرَتْنِي عَنْ امْرَأَةٍ أُخْرَى أَنَّهَا عَمَدَتْ إِلَى بَيْتِهَا فَغَوَّتْهُ عَلَى نَفْسِهَا

وَاقْتَصَرَتْ عَلَى قُرْصَيْنِ وَتَرَكَتْ الدُّنْيَا وَهِيَ تَسْأَلُك أَنْ تَدْعُوَ لَهَا قَالَ: فَقُلْت لَهَا قُولِي لِصَاحِبَةِ الْقُرْصَيْنِ تَدْعُو لِي.[128]

لأنّ **المرأة في الإسلام شقيقة الرجل** كما قال النبي ﷺ "إنّما النساء شقائق الرجال"[129]. وما خصّه الله -عز وجل- لها من بعض الأحكام، إنّما خصّه لما يُوافق طبيعتها، كما خصّ للرجل لما يُوافق طبيعته، وهذا هو العدل.

أوليفر:

إنّه عالم غير عالمنا

الأرض:

[128] الآداب الشرعية والمنح المرعية، ابن مفلح
[129] صحيح أبي داود، الألباني

كذلك **الشّغل، لم يُحرّمه**، إن احتاجت المرأة للعمل لأمر ما، وإن كانت مُتزوّجة فبموافقة زوجها، كلّ ذلك بما لا يُخالف الشرع. قالت عائشة زوجة النّبي ﷺ : "فكانت أطولنا يدا زينب لأنها كانت **تعمل بيدها وتصدق**".[130]

نعم...وكما قلنا أنّ الزّوج هو ربّ البيت وقائده، ومُوجب القيادة في البيت لابدّ منه عقلا وقدرا، فإنّ لكلّ مؤسسة قائد، من مدرسة، ومستشفى، وشركة، وبلد، أفلا يكون لأهم مؤسسة، البيت، قائد؟!! ولابدّ أن يكون قائد البيت هو الزّوج، لما يتمتّع به من صفات مفطور عليها، من قوة وعقل. والزّوجة هي الأخرى مفطورة على اتّباع زوجها، فهي تبحث عن من يقودها ويحميها، وهذا أمر لا يستطيع إنكاره إلا معاند.

[130] صحيح البخاري

ولا نعني بذلك طاعته في كلّ شيء، وإنما الطّاعة في المعروف، فلو أمر بمعصية فلا تُطعه. هذا من جهة.

ومن جهة أخرى، ليس قولنا ذلك أنه لا يستشير زوجته، فالقائد الحق، هو الكريم، الحليم، البار بأهله وبمن يقود، كما كان النبي ﷺ {وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ} [الأنبياء : 107]

وقال تعالى {لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ} [التوبة : 128]

وكان النبي ﷺ يستشير أصحابه كما أمره الله بذلك {وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ} [آل عمران : 159]

وكان يستشير زوجته كما حدث عند صلح الحديبة. فإنّه لما تم الصلح بين النبيﷺ ومشركي قريش قام رسول الله ﷺ فقال: " يا أيها الناس انحروا واحلقوا "، قال: فما قام أحد، قال: ثم عاد بمثلها، فما قام رجل حتى عاد بمثلها، فما قام رجل، فرجع رسول الله ﷺ فدخل على أم سلمة فقال: "يا أم سلمة ! ما شأن الناس؟ قالت: يا رسول الله قد دخلهم ما قد رأيت،

فلا تكلمن منهم إنسانا، واعمد إلى هديك حيث كان فانحره، واحلق فلو قد فعلت ذلك، فعل الناس ذلك، فخرج رسول الله ﷺلا يكلم أحدا حتى أتى هديه فنحره ثم جلس فحلق، فقام الناس ينحرون ويحلقون".[131]

ومن جهة أخرى، لا ننسى أنّ العلاقة بين الزوج وزوجته، هي علاقة مبنية على المودة والرحمة، فالمُحب لن يرى طاعةَ مُحبِّه تكلّفا بل هو يسعى لذلك. ولن يأمر بما هو شاقاً على مُحبِّه.

فالزّوجة التي تتزوّج بمن تُحب من الصّالحين، إذا كانت هي أيضا صالحة، كما قررنا أنّ الطيبين للطيبات، لن تشعر بتكلّف ولن يأمر هو بمشقّة، وكما قال الحسن البصري حين أتاه رجل، فقال: إنّ لي بنتًا أحبّها، وقد خطبها غير واحد، فمن تشير عليّ أن أزوجها؟ قال: زوِّجها رجلًا يتقي اللهَ، فإنه إن أحبّها، أكرمها، وإن أبغضها، لم يظلمها". وهي وصيّة الرسول ﷺ للزّوجين، فقال للزوج: "تُنْكَحُ المَرْأَةُ لأَرْبَعٍ: لِمالِها، ولِحَسَبِها، وجَمالِها،

[131] صحيح البخاري

ولِدِينِها، فاظْفَرْ بذاتِ الدِّينِ، تَرِبَتْ يَداكَ "[132]. وقال لولي المرأة "إِذَا خَطَبَ إِلَيْكُمْ مَنْ تَرْضَوْنَ دِينَهُ وَخُلُقَهُ فَزَوِّجُوهُ، إِلَّا تَفْعَلُوا تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الأَرْضِ، وَفَسَادٌ عَرِيضٌ"[133]. وكما رأينا معاملة النّبي ﷺ لزوجاته.

ونذكر هذا الأمر لأهميته وأنّه من القوانين الطبيعية الأصليّة التي بمخالفتها ظهر الفساد في الأرض، وإنّكم لترون البلد التي لا يُطع أهلها حاكمها تكون فوضوية، ويُفقد فيها الأمن وتستباح الأعراض ويأكل القويُّ الضعيفَ. فكذلك الأسرة، البيت الذي لا يُطاع فيه ربها وهو الأب، يُنتهك عرضه.

فإذا لم تستطع الزوجة طاعةَ زوجها لكراهيته، فلها أن تطلب الانفصال إما بالطّلاق أو الخلع كما قال تعالى { فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ ۗ تِلْكَ حُدُودُ اللهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا ۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ} [البقرة : 229]

---

132 متفق عليه

133 رواه الترمذي وحسنه الألباني

وكما حصل مع امرأة ثابت بن قيس إذ أتت النبي ﷺ فقالت: يا رسول الله، ثابت بن قيس ما أعتب عليه في خلق ولا دين، ولكني أكره الكفر في الإسلام. فقال رسول الله ﷺ : أتردين عليه حديقته؟ قالت: نعم. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: اقبل الحديقة وطلقها تطليقة.[134]

أوليفر:

وهل الانفصال أمر طبيعي؟

الأرض:

هو علاج، والعلاج لا يؤخذ إلا عند الحاجة إليه، وإلا يضرّك. كذلك الطلاق يُباح ويُشرع عندما يتضرر الزّوجين من البقاء مع بعضهما، مثل عدم القيام ببعض الحقوق كالنّفقة والمعاشرة والسكن من الزوج، أو

[134] صحيح البخاري

السبّ والإهانة من أحدهما أو الضرب وغيره. والطلاق يكون آخر العلاج إن لم تنفع علاجات قبله ومحاولة الإصلاح.

أوليفر:

هذا لو لم يكن بينهما أولاد، لكن لو وُجد أولاد، قد يتضررون بمفارقتهما، وينشؤون نشأة غير سويّة، أليس كذلك؟

الأرض:

قد يكون ذلك، ولكن الظنّ الأغلب أنّ نشأة الأولاد بين أبوين متخاصمين، يُهين بعضهما البعض، ويسبّ بعضهما البعض، ويضرب بعضهما البعض، يُولّد فيهم تربية سيّئة جدا، ويتعاملون مع الأخرين بنفس الأسلوب وخاصة عندما يتزوجون. ناهيك عن المشاكل النفسية التي سيعيشونها.

والضّرر الذي سيلحقهم بالفراق أقل بكثير، بل لن يعودوا يرون أبويهم في صورة سيّئة.

هذا من جهة، ومن جهة أخرى، الانفصال يحمي من الوقوع في الفساد من زنا وكذب وغيره.

أوليفر:

بما أنّا فتحنا موضوع الانفصال وأن اللهَ -عز وجل- شرّعه، فكيف جاء نظامه ؟

الأرض:

نعم... جاء بالعدل، كما أنّ للزوج أن ينفصل، أباح للمرأة أيضا ذلك كما مرّ بنا. وأرشد الله -عز وجل- أن يكون ذلك بإحسان قال تعالى {وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ **فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ** ج

وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ ۚ وَلَا تَتَّخِذُوا آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا ۚ وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِ ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ{

[البقرة : 231]

وليس كما نراه في بعض، مِن مَنْعِ الزَّوج الطلاق إذا لم ترغب الزّوجة، ولو كانت نِيَّتها الاضرار به، فكم من زوج يريد الانفصال ويُمنع لسنين ويُطالب بالنفقة عليها مع أنّه لا يسكن معها ولا يأخذ حقوقه الزوجية، ويُمنع مع ذلك الزواج بغيرها حتى يتمّ الطلاق من الأولى... فأين هو العدل؟! أم ليس للرجل حقوق ولا اعتبار؟!!

ثمّ إذا طلّق الزوج زوجته، أوجب الله -عز وجل- عليها العدّة، وهي مدّة ثلاث حيض، لعدّة حكم... منها استبراء الرّحم، فلعلها تكون حامل، فلو تزوجت بعد الطلاق مباشرة، فقد يُنسب الابن لغير أبيه الحقيقي.

ومنها إعطاء مهلة لكليهما أن يتراجعا عن القرار، فإن تراجعا في تلك المدّة، رجعت إليه بدون عقد زواج جديد، وإلا جدّدا العقد.

وهذا فيه مراعاة النّفوس، فقد يكون الطلاق عن غضب وغيره ثمّ يظهر له خطؤه ويندم. وهي كذلك.

وترى منه تيسيره أيضا، فلا يبقيا سنين معلقان...

هذا الحكم الثاني... وأمّا الحكم الثالث، هو سماح الشرع له لثلاث طلقات، فلو طلّق ثالث مرّة، لن يستطيع إرجاعها إلا أن تتزوج زوجا غيره بقصد الزّواج الصحيح، لا لترجع إليه. ثمّ يحصل لها انفصال من ذلك الزوج لعذر شرعي.

أوليفر:

لماذا ؟

الأرض:

لأنّ مكانة الزواج والأسرة عند الله -عز وجل- عظيمة جدا، وجعل حفظ نظام الكون بها، فمن عبث به إنما عبث بآيات الله كما قال تعالى {وَلَا تَتَّخِذُوا آيَاتِ اللهِ هُزُوًا}. وقد رأينا أهميته وفضله، لهذا قال اللهُ عنه {وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا} [النساء : 21]

كما رأينا أيضا ضرر الانفصال وإنما أبيح للحاجة، وهو آخر علاج. "وكثير من النّاس الذين يستهتر بهذا التشريع العظيم (الطلاق) ويتخذه هزوا، ويظل هكذا يطلق زوجته المرة بعد المرة وعند أول بادرة خلاف، ومنهم من يتخذه سيفا مصلتا على رقبة المرأة لابتزازها وإذلالها إلى غير ذلك من الأغراض الفاسدة. من أجل ذلك جاءت الشريعة بتشريع حازم ليردع هؤلاء العابثين فحرمت على الرجل إذا طلق امرأته ثلاثا أن يتزوجها حتى تنكح زوجا غيره زواجا حقيقيا ويدخل بها ذلك الغير وذلك لإغاظة

الزوج وتأديبه ليشعر بجرم ما كان منه من العبث بآيات الله، فإنّ الرجل ينفر من أن يعاشر امرأته غيره ولو كان هذا في نكاح صحيح فإذا استشعر الإنسان هذا أمسك عن العبث بالطلاق"[135].

وهذا الشرع يرجع للزوج بفائدة عظيمة، وهي تهذيب نفسه وتملكها عند الغضب، وقبلها بتحسين أخلاقه عموما للحفاظ على أسرته.

أوليفر:

سبحانه ما أحكمه! هذا يُشبه القوانين الرّدعيّة، فهي شُرعت للردع وحفظ الفرد والمجتمع لا للتنكيل.

الأرض:

135 اسلام ويب

أحسنت القول يا بُني... فإذا تمّ الطلاق وكان بينهما أولاد، فعلى الأب النفقة عليهم، من مسكن، ومأكل وملبس... فلو كانت الأم لا تشتغل، فلها أن تطلب نفقة حضانة أولادها.

واعلموا، أنّ الأحكام التي شرعها الله -عز وجل- راعت جميع الأطراف، الأب والأم والأولاد، قال تعالى {* وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ۖ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ ۚ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ ۚ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُ بِوَلَدِهِ ۚ} [البقرة : 233]

وقال تعالى { لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ ۖ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ ۚ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا ۚ سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا} [الطلاق : 7]

وراعت الولد إن كان رضيعا، فيبقى عند أمّه تُرضعه حتّى يبلغ سنّ التمييز، فيختار. فلو تزوّجت سقطت حضانتها إلاّ لو وافق أب الولد بإبقائه عندها، كذلك الزوج الجديد إن قبل بذلك.

أوليفر:

لماذا تسقط حضانتها؟ أليست أمه هي أيضا؟

الأرض:

لهذا الطلاق هو آخر علاج، وليس مرغوب فيه، لما يترتب عليه من مشقة في الحياة لجميع الأطراف. فقد تَحْرِم الأمّ نفسها من الزواج إذا لم تجد الزوج الذي يقبل بولدها، هذا إن قبل الأب أوّلا اِبْقاء ابنه عندها بعد الزواج. لأنّ من حقّ الأب معرفة الرجل الذي سيعيش تحت سقفه ابنُه، فهل سيرضى خلقه؟ لأنه سيؤثر عليه. وقد يشعر أيضا بالمهانة، إذ

يرى ابنه يعيش في بيت رجل آخر، وغيرها من المشاعر التي لابدّ مراعاتها.

وانظروا أن اللهَ -عز وجل- لم يُوجبْها اطلاقا، وإنما جعل ذلك هو الأصل مع سماحه بالتراضي، كما جعله الأصل ما لم يُوجد مانع شرعي تُسقط الحضانة من أحدهما حفاظا على الصبي.

كما أنّه لا يجوز لأحدهما السفر بالولد دون إعلام الآخر وخاصة الهجرة، مراعاة للأب حتى يرى ابنه، ومراعاة للولد ليرى هو الآخر أباه.

وهكذا جميع الأحكام راعت جميع الأطراف، فلا يظلم ولا يُظلم أحد.

أوليفر منبهرا:

لا أدري ما أقول عن هذا الشرع الدقيق! حقا إنّه لشرعٌ عادلٌ!

الأرض:

أكيد! فهو من لدن خالق عادل حكيم رحيم...

نختم الكلام عن الحب بالحديث عن زوجه

الأولاد:

وهل للحبّ زوج؟!

الأرض:

نعم، وليس هناك حبا حقيقيا بدونه، وهو لا يختص فقط بحب الزّوجين، بل مع كلّ شيء، فهو من لوازمه

الأولاد:

ما هو؟

الأرض:

الغيرة

الأولاد:

الغيرة!

الأرض:

نعم، وهي مثل المناعة في الكائنات الحية، للحفاظ على صحتهم.

كذلك الغيرة، للحفاظ على حبيبه.

ليو:

آه أكيد، لا يُنازعك عنه أحد، أليس كذلك يا أوليفر؟! لقد كِدْتَ أن تقتل ذلك الشّاب الذي تحرّش بأميليا!

آرثر:

أذكر ذلك، لولا تدخّل الحاضرين لكنت الآن في السجن

ضحك الجميع

الأرض:

وهكذا دين الله -عز وجل- جاء موافقا ومكملا لهذه الفطرة العزيزة. قال النّبي -صلى الله عليه وسلم: "المؤمنُ يغارُ واللهُ أشدُّ غَيْرًا "[136]

وقال ﷺ : "ثلاثةٌ لا يدخلون الجنَّةَ... الدَّيُّوثُ، والرَّجِلَةُ من النِّساءِ، ومُدمنُ الخمرِ". قالوا يا رسولَ الله! أما مدمنُ الخمرِ فقد عرفْناه، فما الدَّيُّوثُ؟ قال: "الذي لا يُبالي من دخل على أهلِه"، قلنا: فما الرَّجِلَةُ من النساءِ؟ قال: "التي تشبَّه بالرجالِ"[137]

---

136 صحيح مسلم
137 صحيح الترغيب

بل جعل الذي يُدافع عن عرضه في مرتبة الشهيد، قال النبي ﷺ : "مَنْ قُتِلَ دُونَ مالِهِ فهوَ شَهيدٌ. ومَنْ قُتِلَ دُونَ دِينِهِ فهوَ شَهيدٌ. ومَنْ قُتِلَ دُونَ دَمِهِ فهوَ شَهيدٌ، ومَنْ قُتِلَ دُونَ أهلِهِ فهوَ شَهيدٌ "[138].

والأحكام التي مرّت بنا من لباس المرأة وغض البصر ومنع الاختلاط وقوامة الزوج، ما هي إلا مسايرة لهذه الفطرة الشريفة، الغيرة.

لكن، بالرغم من ذلك، وكما لكلّ نظام في الحياة، كما يُقال إذا تجاوز الأمر عن حدّه رجع إلى ضدّه. كذلك **الغيرة، منها ما هو غيرةٌ ممدوحةٌ، يحبُّها الله، ومنها ما هو غيرةٌ مذمومة، يكرهها الله،** فالّتي يحبُّها الله: أن يغار عند قيام الرِّيبة، والّتي يكرهها: أن يغار من غير ريبةٍ، بل من مجرَّد سوء الظن، وهذه الغيرة تُفْسدُ المحبة، وتوقع العداوة بين المحبِّ ومحبوبه.

قال ﷺ: «إن من الغيرة ما يحبُّ الله، ومنها ما يكرهُ الله، فالغيرة التي يُحبُّها الله: الغيرة في الريبة، والغيرة التي يكرهها الله: الغيرة في غير ريبة».[139]

---

[138] صحيح النسائي
[139] صحيح النسائي

ومن أجمل مواقف الغيرة ما قاله أبو عبدِ الله محَمَّدُ بنُ أحمدَ بنِ موسى القاضي: حضَرْتُ مجلِسَ موسى بنِ إسحاقَ القاضي بالرَّيِّ سنةَ سِتٍّ وثمانين ومائتَينِ، وتقدَّمَت امرأةٌ، فادَّعى وليُّها على زوجِها خمسَمائةِ دينارٍ مَهرًا (مبلغ ضخم في تلك الفترة)، فأنكر، فقال القاضي: شهودُك؟ قال: قد أحضَرْتُهم، فاستدعى بعضَ الشُّهودِ أن ينظُرَ إلى المرأةِ ليُشيرَ إليها في شَهادتِه، فقام الشَّاهِدُ، وقالوا للمرأةِ: قومي، فقال الزَّوجُ: تفعلون ماذا؟ قال الوكيلُ: ينظُرون إلى امرأتِك وهي مُسفِرةٌ لتَصِحَّ عِندَهم مَعرفتُها، فقال الزَّوجُ: فإنِّي أُشهِدُ القاضيَ أنَّ لها عليَّ هذا المهرَ الذي تدَّعيه، ولا تُسفِرُ عن وجهِها، فرُدَّت المرأةُ وأُخبِرَت بما كان من زوجِها، فقالت المرأةُ: فإنِّي أُشهِدُ القاضيَ أنِّي قد وهَبتُ له هذا المهرَ وأبرَأْتُه منه في الدُّنيا والآخِرةِ، فقال القاضي: يُكتَبُ هذا في مكارِمِ الأخلاقِ[140]

بل كانت الغيرة على جميع النساء وإن لم تكن من أهله وقد ذكره الإمام ابن هشام في (السيرة النبوية) فقال: كَانَ مِنْ أَمْرِ بَنِي قَيْنُقَاعَ أَنَّ امْرَأَةً

[140] المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، ابن الجوزي

مِنْ الْعَرَبِ قَدِمَتْ بِجَلَبٍ لَهَا [بِضاعة لها]، فَبَاعَتْهُ بِسُوقِ بَنِي قَيْنُقَاعَ، وَجَلَسَتْ إلَى صَائِغٍ بِهَا، فَجَعَلُوا يُرِيدُونَهَا عَلَى كَشْفِ وَجْهِهَا، فَأَبَتْ، فَعَمِدَ الصَّائِغُ إلَى طَرَفِ ثَوْبِهَا فَعَقَدَهُ إلَى ظَهْرِهَا، فَلَمَّا قَامَتْ انْكَشَفَتْ سَوْأَتُهَا [عَورتها]، فَضَحِكُوا بِهَا، فَصَاحَتْ. فَوَثَبَ رَجُلٌ مِنْ الْمُسْلِمِينَ عَلَى الصَّائِغِ فَقَتَلَهُ، وَكَانَ يَهُودِيًّا، وَشَدَّتْ الْيَهُودُ عَلَى الْمُسْلِمِ فَقَتَلُوهُ، فَاسْتَصْرَخَ أَهْلُ الْمُسْلِمِ الْمُسْلِمِينَ عَلَى الْيَهُودِ، فَغَضِبَ الْمُسْلِمُونَ، فَوَقَعَ الشَّرُّ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ بَنِي قَيْنُقَاعَ. اهـ

ومن أجملها، موقفكم أنتم، فقد غرتم على صديقكم من أن يُصيبه مكروه، وغار هو أيضا عليكم وأمركم بالفرار وإنقاذ أنفسكم... فالغيرة ليست فقط على الزوجة، بل أيضا على الصديق والأخ، والوالدين، والبلد، والدين...

ثمّ قالت الأرض:

فسبحانه ما أحكمه وما أعلمه! وما أرحمه وما ألطفه! لقد خلق النّفس "وجعل فيها الغرائز ودوافع طبيعية لحفظها وحفظ البدن وبقائه ودوام نسله، مثل الجوع والعطش، والكرى، والشبق، والأمومة.

فالجوعُ يستحِثُّ الأكلَ ويطلُبه، لِمَا فيه من قِوام البدن وحياته ومماته.
والكرى يقتضي النَّوم ويستحِثُّه، لما فيه من راحة البدن والأعضاء وجَمام القُوى وعَوْدِها إلى قوَّتها جديدةً غير كالَّة.
والشَّبَقُ يقتضي الجماع الذي به دوامُ النَّسل، وقضاءُ الوطر، وتمامُ اللذَّة.
فتجدُ هذه الدَّواعي **تستحثُّ الإنسانَ لهذه الأمور وتتقاضاها منه بغير اختياره**، وذلك عينُ الحكمة، فإنه لو كان الإنسانُ إنما يستدعي هذه المُسْتَحثَّات إذا أرادها لأوشك أن يَشْتغل عنها بما يَعْروه من العوارض مدَّةً فينحلَّ بدنُه ويهلك ويترامى إلى الفساد وهو لا يشعر، كما إذا احتاج بدنُه إلى شيءٍ من الدَّواء والعلاج، فدافَعه وأعرض عنه حتى استَحكم به الدَّاءُ فأهلَكه.
فاقتضت حكمةُ اللطيف الخبير أن جُعِلت فيه بواعثُ ومُسْتَحثَّاتٌ تؤزُّه أزًّا إلى ما فيه قِوَامه وبقاؤه ومصلحتُه، وتَرِدُ عليه بغير اختياره ولا

استدعائه، فجُعِل لكلِّ واحدٍ من هذه الأفعال محرِّكٌ من نفس الطَّبيعة يحرِّكُه ويَحْدُوه عليه."[141]

والأمومة تحثّه على الزواج والانجاب والعناية بالطفل.

ثمّ ركّب فيها الشهوة والحب وعلّق فيهما اللذة لتمام **مصلحتها ومصلحة الكون**، كما قال الشاعر: "وللناس فيما يعشقون مذاهب"

كما أنّه سبحانه وتعالى **ركّب فيها الغضب لتدفع به ما يضرها** ويضرّ من تُحب.

ثمّ ركّب فيها العقل وجعله مفطورا على استحسان الطيّب و استقباح الخبيث حتى لا يكون أسير الغرائز والشهوات.

وجعل فيه الإرادة والصبر لتمكّنه من الصبر ومقاومة القبائح.

كما جعل فيها الضّمير (الحياء وتأنيب الضمير) ليضبط سلوكها عند غياب القوانين.

ثمّ أرسل الله إليها الرّسل وأنزل إليها الكتب موافقة لطبيعتها، هادية لصلاحها، ضابطة لسلوكها.

فهل يُعقل أن يكون هذا كلّه من مجرّد صدفة؟!!!

---

[141] مفتاح دار السعادة، ابن القيم (بتصرف)

الأولاد:
حقا مُستحيل!

الأرض:

هذه بعض الأسرار...ما رأيكم الآن أن نخرج بالنّفس إلى علم الشهادة، المحسوس؟

الأولاد:

كيف؟

الأرض:

في الحقيقة لن نخرج ذاتها ولكن ما يُعبّر عن ذاتها

الأولاد:

نحن معك على كلّ حال

الأرض:

حسنا! سنركب طائرة البيان

الأولاد:

طائرة البيان؟! ماذا تعنين؟

الأرض:

اللغة، هي التي تُبين عمّا داخلنا

الأولاد:

إننا نرى ذلك

الأرض:

أتعلمون أنّها من أقوى الأدلّة على وجود الله -عز وجل- ؟ وأنّها تنطوي

على ذخائر من الأسرار النفيسة

ليو:

حقا!! أنا متشوّق جدا لمعرفتها!

الأرض:

لنركب الطائرة إذا! أنتم مُستعدّون؟

الأولاد:

مُستعدون!

سجّل بريدك الالكتروني على الموقع التالي لتصلك الأجزاء التالية عند إصدارها إن شاء الله

https://baytalhayat.com